ضرب الأمثال

من كلام الكبير المتعال

جمع وتعليق وترتيب:

الفقير إلى عفو ربه

محمد لخضر سعيدات

الطبعة الأولى

2016 / 1437

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وينال العبد الفقير إلى ربه أعلى الدرجات، والصلاة والسلام على من بعثه الله إلى الناس كافة، محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وبعد:

أهدي هذا البحث -ضرب الأمثال من كلام الكبير المتعال- إلى روح والدي رحمه الله، الذي كان حريصا على أن أتعلم القرآن تلاوة وحفظا وتأملا، لكي يزيدني به تعلقا، ولوالدتي حفظها الله وأطال في عمرها، التي كانت تحيطني بالرعاية حتى أنال بفضل الله الخير الكثير، فجزاهما عني كل خير وجعل هذا العمل في ميزان حسناتها يوم اللقاء، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89)﴾سورة الشعراء.

و إلى الإمام الحاج عبد القادر رمان الذي شجعني لإخراج هذا البحث إلى القارئ الكريم لتعم الفائدة، فبارك الله فيه، وفتح عليه من أسرار أهل الله وخاصته، وإلى رفقاء الصحبة في طريق الهداية، الأخوة الكرام محمد بن علي ومصطفى جعمات والعيدي محمد، الذين أحببتهم في الله، وإلى كل من تعلق قلبه بمحبة الله ورسوله، إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا العمل راجيا من الله أن يتقبله مني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وأصحابه وبعد:

بما أن المُقْبل على دراسة كتاب الله تعالى في مختلف فنونه وعلومه على مرِّ السنين، لا بد أن يحصل على فائدة كبيرة وتركة عظيمة، كما فعل الأستاذ محمد لخضر سعيدات في البحث عن ضرب الأمثال في القرآن الكريم، وإن دلَّ على شيء فإنما يدل على تحفيز حامل القرآن الكريم للإقبال على دراسة كتاب الله من جميع الجوانب كما ذكره الباحث منقولا عن الإمام ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ﴾في سورة البقرة.

قد لفت نظري أمر مهم أردت أن أنبه القارئ عليه وهو ما أطلق عليه الباحث في مستهل كلامه: تمهيد وقد أسميته الإستفتاح فكما قيل: الفواتح عناوين الخواتم، فقد افتتح بحثه هذا بالحديث الشريف (إنما الأعمال بالنيات) والذي رواه عمر بن الخطاب ﷺ والمتفق على صحته مع تواتر النقل في تعظيم قدر هذا الحديث، وقد اقتفى الباحث آثار السلف الصالح باستهلال مؤلفاتهم به سواء كانت مصنفات السنن أو الفقه، وقد قالوا: ليس في أخبار النبيءﷺأجمع من هذا الحديث وكأن الباحث أورده للتبرك بسنتهم في الكتابة وحسن نواياهم.

وكما يكون المثال برهانا ومصباحا لمفتتح الكلام - وهذه من ميزات التمثيل- نأمل كذلك أن يكون هذا الحديث النبوي الشريف من مطلع التشريف لهذا البحث.

بعد قراءتي للبحث، واطلاعي على ما جاء فيه عرفت أن الباحث قد استأثر به لنفسه في بادئ الأمر فأحببت أن يكون في متناول الجميع لتعم الفائدة ويزيد الله صاحبه علما نافعا ينتفع به كل سامع والذين اهتدوا به هدىً إن شاء الله.وقد أحسن الإختيار، ويكفيه شرفا أن هذا العلم جعله الإمام الشافعي ممن يجب معرفته، حيث مثله بالمرآة للنفس وعونا على البيان والتبيين ويعجبني قول الإمام الحاتمي حيث قال:"الناس في الدنيا في ضرب أمثال وكشف صُورِي، ويجعل الله لهم تعريفا لهم بأفعالهم وأقوالهم بتجلياته في كل ما يجري عليهم وهم عنها غافلون."اهـ، ثم قال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾. سورة يوسف، الآية 105، انظر كيف جعل هذا العارف كل ما في الحياة الدنيا ضرب أمثال، وانظر مما عقب عليه الباحث في كلمته (النصيحة) والتي تحمل جانبا كبيرا لخلاصة القول، كما أني أرجو أن يخرج الأمثلة المذكورة عن المنافقين في كتيب خاص.

و أخيرا ليس لدي ما أقول، غير أن الإمام الزمخشري والنسفي وابن عطية وابن القيم رحمهم الله جميعا، الذين استشهد بهم الباحث قدْ كَفَوْنا مشقة البحث فجزاهم الله عنا كل خير، كما أتمنى أن يتطرق الباحث مرة أخرى إلى ما جاء في

السنة من ضرب الأمثال وقد ختمها بحديثين ضرب فيهما المثل، فهذه الرسالة مفيدة لحامل القرآن ولغيره مع أننا لو أنصفنا حامل القرآن لوجدناه بيننا هو الفيلسوف والمفكر والعالم النحرير وصاحب الرأي السديد، ولوجدناه أيضا الكيميائي والمخترع وغير ذلك، فيكون بذلك مِدْرة القوم وسيدهم فكيف به في بلده أصبح الرجل المهان وبيته أوهن البيوت.

الإمام عبد القادر رمان

بتاريخ: 2 ربيع الأول 1436 الموافق 28 ديسمبر 2014

مقدمة

لقد شدَّني القرآن الكريم بأسلوبه المحكم، بلاغة وبيانا، حين أسمعه أو أتلو آياته، فيزداد قلبي له انشراحا ووجداني له سبْحا في جمال تركيبه وروعة تناسق كلماته وحروفه، وترتيب سوره طوالها وقصارها، كيف لا يكون كذلك وهو كلام الحكيم الخبير، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(42)﴾سورة فصلت، والذي أخذني أخذ المشتاق إلى سماع كلام ربه، ضرب المثل في القرآن الكريم، فكلما مررت بآيةضرب الله فيها المثل إلا وارتسمت صورتها ماثلة أمام بصري وتمثلتْهـابصيرتي، فحصل لي فيها إدراكا وفهماً، فعزمت على جمعها وترتيبها وشرحها ليكون موضوع ضرب الأمثال في القرآن الكريم واضحا لدى القارئ.

قمت بعد ذلك بتتبع الأمثال التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ثم رتبتها من أول المصحف إلى آخره، ثم اعتمدت على ما قاله المفسرون فيها وأهل اللغة والبلاغة لتعم الفائدة المرجوة، وعقبت على كل مثل بما فتح الله عليَّ، في كلمات سميتها "نصيحة" قصدت بها نصح نفسي أولا وتقديم النصيحة لغيري لكي ندخل تحت قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)﴾سورة العصر.

قسمت أبواب البحث إلى:

أ- الفرق بين التشبيه والتمثيل.

ب- تأثير التمثيل في النفس

ج- معرفة الأمثال.

د - الأمثال في القرآن الكريم

هـ - خاتمة.

إستفتاح

حدثنا الحميدي عبدالله بن الزبيرقال أخبرنا سفيان عن يحيى بن سعيد الأنصاري أنَّ محمد بن إبراهيم التيمي أخبره أن علقمة بن وقاص الليثي أخبره أنه سمع عمر بن الخطاب على المنبر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) متفق عليه .

هذا الحديث أصل عظيم في الدين، وموضوعه الإخلاص في العمل وبيان اشتراط النية وأثر ذلك، وبه صدر البخاري كتابه الصحيح وأقامه مقام الخطبة له إشارة إلى أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل لا ثمرة له في الدنيا والآخرة. وهو أحد الأحاديث التي يدور الدين عليها، قال الشافعي هذا الحديث ثلث العلم ويدخل في سبعين بابا من الفقه وقال أحمد أصل الإسلام على ثلاثة أحاديث، حديث عمر الأعمال بالنيات وحديث عائشة من أحدث في أمرنا هذا وحديث النعمان بن بشير الحلال بين والحرام بين.

يعلم الله أن هذا العمل كان في صورته المخطوطة منذ زمن[1]، ولم يكن الغرض من جمعه أو تدوينه إلا الإستفادة الشخصية من البحث، لما فهمته من

1) يعني به الكاتب نفسه.

ضرب المثل في القرآن الكريم كما ذكرت سابقا، وبعد أن يسر الله لي الظروف والإستشارة، نويت أن أخرجه مطبوعا عسى أن تعم به الفائدة ويختصر الطريق لمن أراد البحث في هذا الموضوع، والله من وراء القصد.

القرآن الكريم كلام الله المنزل على عبده ورسوله بلسان عربي مبين، وكل آية فيه وراءها علم جليل[1]، فهو البحر الذي يحوي الجواهر والدرر، وما على المتدبر إلاالغوص في أعماقه لأستخراجها بفضل الله تعالى، وقد وصفه رسول الله عليه الصلاة والسلام في الحديث المشهور[2]: حدثنا حسين بن علي عن حمزة الزيات عن أبي المختار الطائي عن ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث عن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتاب الله عزّ وجلّ، فيه نبأ ما قبلكم وفصل ما بينكم وخبر ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تلتبس به الألسن ولا تزيغ به الأهواء ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم يتناه الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن اعتصم به فقد هدي إلى صراط مستقيم.

---

1) لو أراد الطالب استقصاءه لاستفرغ عمره كله في هذا العلم

2) رواه الدارمي والترمذي وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلاَّ مِن هـذا الوجـه، وإسـناده مجهـول، وفي الحارث مقال. اهـ. ومعناه صحيح في الجُمْلَة

تقسيم التشبيه باعتبار الوجه إلى تمثيل وغيره:

التمثيل تشبيه وجهه منتزع من متعدد أمرين أو أموركقوله:

كـــأن النُّجــوم والليـــل داجٍ   نقْشُ عاجٍ يلوح في سـقْف سـاجٍ

فوجه الشبه في البيت، هيئة مأخوذة من أشياء بيضاء مستديرة لامعة في وسط شيء أسود، وكقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ(17) ﴾سورة البقرة، شبـه حال المنافقين بحال من استوقد ناراً... (الآية) بجماع الطمع في حصول شيء بُوشِرَتْ أسبابه وهيئت وسائله ثم تلا ذلك الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب وتقويض أركانها رأساً على عقب. وغير التمثيل ما كان بخلاف ذلك نحو: فلان كالسيف في المضاء.

أ- الفرق بين التشبيه والتمثيل:

التشبيه أعم من التمثيل فكل تمثيل تشبيه دون العكس، إذ التمثيل مختص بما كان وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدد.

و للتمثيل مـوقـعـان:

1) أن يكون في مفتتح الكلام فيكون قياساً موضحاً وبرهانا مصاحباً وهو كثير في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(261)﴾سورة البقرة.

2) ما يجيء بعد تمام المعاني لإيضاحها وتقريرها فيشبه البرهان الذي تثبت به الدعوى كقول أبي العتاهية:

ترجو النَّجاة ولم تسلك مسالكها إنَّ السفينة لا تجري على اليَبَسِ

ب- تأثير التمثيل في النفس

إذا وقع في صدر القول بعث المعنى إلى النفس بوضوح وجلاء مؤيداً بالبرهان، وإذا أتى بعد استفاء المعاني كان:

1) إما دليلا على إمكانها كقول المتنبئ:

ومَا أَنَا مِنهم بِالعيْش فِيهِم ولكِنْ مَعْدَن الذَّهبِ الرُغامُ

2) أو تأييداً للمعنى الثابت كقوله:

ونارٌ لوْ نفخْتَ بها أضاءتْ ولكنْ أنْتَ تنفخُ في رمادِ

و في كلتا الحالين يكسب المعاني منقبة ويرفع قدرها ويجعل لها في القلوب هزة وارتياحاً، فإنك إذا تأملت حالك وحال المعنى قبل التمثيل وبعده ترى بوْناً شاسعاً ومسافة الخلاف متسعة، ألا تراك تحس الفرق بين أن تقول: أرى قوماً لهم بهاء ومنظر وليس لهم مخبر، وأن تنشد قول الشاعر:

شـــجر الســـرْو مــنهم مثــلٌ ... لـــه رُواءٌ ومـــا لـــهُ ثَمَـــرُ

فإن جاء في باب المدح كسا المعنى حلة من الفخامة وقضى المادح بـغر المنائح كقوله:

فتى عيش في معروفـه بعْـد موْتـه ... كما كان بعد السـيْل مجـراه مرْتعـاً

وإن جاء في باب الذم كان وقعه أشدُّوحدُّهُ أحدُّ كقوله تعاليفيمن أوتي الآيات فانسلخ منها: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(176)﴾سورة الأعراف، أو كقوله تعالى:﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(41) ﴾سورة العنكبوت.

إذا جاء في مقام الوعظ كان أبلغ من التنبيه والزجر، كقوله تعاليفي وصف نعيم الدنيا: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(20)﴾سورة الحديد.

وإن جاء في موضع الاعتذار خلب القلب وسحر اللب وسلَّ السخيمة وأزال الموجدة والضغينة كقول المتنبئ:

ولا تحسـبوا أن رقصـي بيـنكم طربـاً ... فـالطير يـرقص مـذبوحاً مـن الألـم

وهكذا حاله في كل فنون القول وضروب الكلام، ولا سيما باب الوصف كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24)﴾سورة إبراهيم، وقول الشاعر:

والليل تجري الـدراري في مجرتـه كـالروض عـلى نهـر أزهـاره.

ج- معرفة الأمثال

وقد روى البيهقي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺقال: إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال.

وقد عدّه الإمام الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن، فقال: ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوالّ على طاعته، المثبتة لاجتناب معصيته، وترك الغفلة عن الحفظ، والازدياد من نوافل الفضل.

وقد صنف فيه من المتقدمين الحسن بن الفضل وغيره، وحقيقته إخراج الأغمض إلى الأظهر، وهو قسمان: ظاهر وهو المصرح به، وكامن وهو الذي لا ذكر للمثل فيه، وحكمه حكم الأمثال.

و قسمه أبو عبد الله البكْراباذي إلى أربعة أوجه:

1 -إخراج ما لا يقع عليه الحسّ إلى ما يقع عليه.

2- إخراج ما لا يُعْلم ببديهة العقل إلى ما يُعْلم بالبديهة.

3- إخراج ما لم تجْرِ به العادة إلى ما جرت به العادة.

4- إخراج ما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة.

و ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة:

أ- التذكير. ب- الوعظ. ج- الحث.

د- الزجر. ذ- الإعتبار.

هـ- التقرير وترتيب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس.

و- وتأتي مشتملة على بيان تفاوت الأجر وعلى المدح والذم وعلى الثواب والعقاب وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره وعلى تحقيق أمر أو إبطال أمر.

قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ(45)﴾سورة إبراهيم.فامْتَنَّ علينا بذلك لما تضمنت هذه الفوائد، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(27)﴾سورة الزمر. وقال أيضا: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ(43)﴾سورة العنكبوت

والأمثال مقادير الأفعال، والمتمثِّل كالصانع الذي يقدر صناعته، كالخَيَّاط يقدر الثوب على قامة المَخِيط، ثم يفريه، ثم يقطع، وكل شيء له قالب ومقدار، وقالب الكلام ومقداره الأمثال.

وقال الخفاجيّ: سمي مثلاً لأنه ماثل بخاطر الإنسان أبداً، أي شاخص، فيتأسى به ويتعظ، ويخشى ويرجو، والشاخص: المنتصب. وقال المبرد: المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه فقولهم: مثُل بين يديه.إذا انتصب معناه أشبه الصورة المنتصبة.وقولهم فلان أمْثل من فلان أي أشبه بما له الفضل.

و قال ابن السكيت: المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ شبهوه بالمثال الذي يُعمل عليه غيره. وقال غيرهما: سميت الحِكم القائم صِدْقُها في العقول أمثالاً لانتصاب صورها في العقول، مشتقة من الـمُثـُول الذي هو الإنتصاب، قال إبراهيم الناظم: يجتمع في المثل أربعة لا يجتمع في غيره من الكلام:

أ- إيجاز اللفظ. ب–حسن التشبيه.

ج- إصابة المعنى. د- جودة الكناية

فهو نهاية البلاغة.

قال ابن المقفع: إذا جُعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث.[1]

---

1) البرهان في علوم القرآن – الزركشي

وقد جاء المثل بمعنى الصفة كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلله الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(60)﴾سورة النحل، أي الصفة العليا، وهو قول "لا إله إلا الله" وقول تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ(35)﴾سورة الرعد، أي صفتها.ومن حكمته تعليم البيان، وهو من خصائص هذه الشريعة، والمثل أعون شيء على البيان.

فإن قلت: لماذا كان المثل عونا على البيان، وحاصله قياس معنىً بشيء، من عرف ذلك المقيس فحقه الاستغناء عن شبيهه، ومن لم يعرفه لم يُحْدث التشبيه عنده معرفة ؟

والجواب: أن الحِكم والأمثال تصوّر المعاني تَصوّر الأشخاص؛ فإن الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان، لاستعانة الذهن فيها بالحواس؛ بخلاف المعاني المعقولة، فإنها مجردة عن الحس ولذلك دقّت. ولا ينتظم مقصود التشبيه والتمثيل إلا أن يكون المثل المضروب مجرباً مُسلماً عند السامع.

و في ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى؛ إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجليّ، والشاهد بالغائب، فالمرغّب في الإيمان مثلا إذا مثّل له بالنور تأكد في قلبه المقصود، والمزهد في الكفر إذا مثّل له بالظلمة تأكد قبحه في نفسه.

فيه أيضا تكبيت الخصم، وأكثر القرآن من الأمثال كما جاء في سائر كتب الله تعالى.

قال الزمخشري: التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني، وإدناء المتوهّم من المشاهَد، فإن كان المتمثل له عظيما كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا بأمرٍ استدعته حال الممثل له، ألا ترى أن الحق لما كان واضحا جليا تمثل له بالضياء والنور، وأن الباطل لما كان بضده تمثل له بالظلمة، وكذلك جعل بيت العنكبوت مثلا في الوهن والضعف.

و المثل هو المستغرب؛ قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلله الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(60)﴾سورة النحل وقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ(6)﴾سورة الرعد؛ هي الأمثال، وقيل العقوبات.

ولقد قسم العلماء الأمثال القرآنية إلى أقسام مختلفة وهي ترجع في الحقيقة إلى ثلاثة أنواع:

- الأمثال الصريحة: وهي التي يصرح فيها بلفظ المثل، وهي كثيرة جدا في القرآن الكريم.

- الأمثال الكامنة: وهي التي لم يصرح فيها بلفظ المثل ولكنها جرت مجراه؛ وهي نوع من الإيجاز البياني المشرق في كتاب الله تعالى، ومنها على سبيل المثال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا(67)﴾سورة الفرقان.

- الأمثال المرسلة: وهي جمل أرسلت من غير تصريح بلفظ التشبيه، ويصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه وقد اكتسبت صفة المثلية بعد نزول القرآن الكريم وشيوعه بين المسلمين ولم تكن أمثالا معروفة قبل ذلك، ومن أمثلة هذا النوع في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لله مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(51)﴾سورة يوسف.وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ(81) ﴾سورة هود.وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ(58)﴾سورة النجم. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهلَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ(73)﴾سورة الحج، وقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(286)﴾سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَحْوِيلًا(43)﴾سورة فاطر.

في هذا البحث جمعت الأمثال الصريحة والكامنة التي وردت في القرآن الكريم، وقمت بترتيبها حسب الترتيب المصحفي– أي حسب السور – ثم بينت المعنى الإجمالي لهذه الآيات التي جاء ذكر المثل فيها، ليتسنى للمتأمل فيها الفهم وإدراك الصورة واضحة مشرقة، ليحصل التدبر في آيات القرآن الكريم وصدق الله إذ يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ(43)﴾سورة العنكبوت.

فمن عقل الأمثال سماه الله تعالى في كتابه عالما لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ(43)﴾سورة العنكبوت.[1]

د– الأمثال في القرآن الكريم

تمهيد:

الأمثال مرآةالنفس،وأنوارالصفات مرآةالقلب، وأن الله تعالى جعل على الأفئدة أسماعاً وأبصاراً وجعل على الرؤوس أسماعاً وأبصاراً فما أدركت أسماع الرؤوس وأبصارها أيقن به القلب واستقرت النفس واتسعت في علم ذلك وانشرح صدره بذلك وماغاب عن أسماع الرؤوس وأبصارهاوجاءت أخبارها عن الله وتلك الأشياء مكنونة، أيقن القلب بذلك ولكن تحيرت النفس وتذبذبت. وإن النفس مستقرها في الجوف والقلب مستقره فوق النفس فالقلب كدلومعلق في الصدربعروق هو بما فيه من المكنون، وتحته النفس وفيهاالشهوات،

1) الأمثال من الكتاب والسنة– أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترميذي

والهوى ريح من تنفس النار، خرجت إلى محل الشهوات بباب الناروا حتملت نسيمهاوأفراحهاحتى أوردتها على النفس؛ فإذاهبت ريح الهوى بأمروجاءت بذلك النسيم والفرح إلى النفس تحركت النفس وفارت ودب في العروق طيبهاولذتهافي أسرع من اللحظة، فإذا أخذت النفس في التذبذب والتمايل والاهتشاش إلى ماتصور وتمثل لهافي الصدرتحرك القلب وتمايل هكذاوهكذ، من وصول تلك اللذة إليه فإذا لم يكن في القلب شيء يثقله ويسكنه مال إلى النفس، فاتفقاواتسقا على تلك الشهوات فإن كانت تلك منهيا عنها فبرز إلى الأركان فعلها فصارت معصية وذنبا،وإنمايثقل القلب بالعلم بالله، لأن العلم بالله يورث الخشية فإذاتأدت تلك الخشية إلى النفس ذبلت وتركت التردد فاستقر القلب.

والعلم بالله يورث الحياء، فإذا تأدى ذلك الحياءإلى النفس انكسرت وخجلت فإذا جهل القلب ربه، صارصفة القلب مع النفس على ماوصفنا. والقلب موقن بالله تعالى بيقين التوحيد فإذاجاءت نوائب الأموراستقرالقلب بذلك اليقين، لأنه ليس في القلب شهوة وتذبذبت النفس وترددت بالشهوة التي فيها فإذا ضربت لها الأمثال صارذلك الأمر لها بذلك المثل كالمعاينة، كالذي ينظرفي المرآة فيبصرفيها وجهه ويبصربها من خلفه لأن ذلك المثل قدعاينه ببصرالرأس فإذا عاين هذا أدرك ذلك الذي غاب عنه بهذا، فسكنت النفس وانقادت للقلب واستقرت تحت القلب في معدنهافهي كالعماد لسطح البيت فإذاتحرك العماد تحرك السطح وانهار وتبدد العماد.

فضرب الله الأمثال لنفوس العباد حتى يدركوا ماغاب عن أسماعهم وأبصارهم الظاهرة بماعاينوا. [1]

1) نفس المصدر السابق

من سورة البقرة

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ(8)﴾.إلى قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(20)﴾سورة البقرة.

المعنى:

لما ذكر تعالى فى أول السورة صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، ذكر هنا "المنافقين" وهم الصنف الثالث، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وأطنب بذكرهم فى ثلاث عشرة آية، لينبه إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ثم عقب ذلك بضرب مثلين، زيادة فى الكشف والبيان، وتوضيحا لما تنطوى عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق، وما يئول إليه حالهم من الدمار والهلاك.

سبب النزول:

قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات فى المنافقين من أمثال "عبد الله بن أبي ابن سلول، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس" كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون: إنا لنجد فى كتابنا نعته وصفته.

"ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم: صدقنا بالله، وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات وصدقنا بالبعث والنشور، وما هم على الحقيقة بمصدقين ولا مؤمنين لأنهم يقولون ذلك قولاً دون اعتقاد، وكلاماً دون تصديق. قال البيضاوي: هذا هو القسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله، لأنهم موهوا الكفر، وخلطوا به خداعا واستهزاءً، ولذلك أطال القرآن فى بيان خبثهم وجهلهم، واستهزأ بهم وتهكم بأفعالهم، وسجل عليهم الطغيان والضلال، وضرب لهم الأمثال." انتهى.

ويعملون عمل المخادع، بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إصرارهم على الكفر، يعتقدون – بجهلهم – أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، وما علموا أن الله لا يُخدع، لأنه لا تخفى عليه خافية، قال ابن كثير: النفاق هو إظهار الخير، وإسرار الشر وهو أنواع: (اعتقادي) وهو الذي يخلد صاحبه فى النار، و(عملى) وهو من أكبر الذنوب والأوزار، لأن المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، وإنما نزلت صفات المنافقين في (السور المدنية)، لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه. انتهى.

وما يخدعون في الحقيقة إلا أنفسهم لأن وبال فعلهم راجع عليهم، ولا يحسون بذلك ولا يفطنون إليه، لتمادى غفلتهم، وتكامل حماقتهم، وفى قلوبهم شك ونفاق، فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضلالا فوق ضلالهم، والجملة

دعائية، قال ابن أسلم: هذا مرض فى الدين، وليس مرضا فى الجسد، وهو الشك الذى دخلهم فى الإسلام، فزادهم الله رجسا وشكا، ولهم عذاب مؤلم بسبب كذبهم في دعوى الإيمان، واستهزائهم بآيات الرحمن.

ثم شرع تعالى في بيان قبائحهم، وأحوالهم الشنيعة فقال: وإذا قال لهم بعض المؤمنين: لا تسعوا في الأرض بالإفساد وإثارة الفتن، والكفر والصد عن سبيل الله، قال ابن مسعود: الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض.قالوا ليس شأننا الإفساد أبداً، وإنما نحن أناس مصلحون، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك.قال البيضاوي: تصوروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(8)﴾سورة فاطر.ولذلك رد الله عليهم أبلغ ردّ بتصدير الجملة بحرفيْ التأكيد (ألاَ) المنبهة و(إنَّ) المقررة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل، والإستدراك بعدم الشعور فقال: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾، ألا فانتبهوا أيها الناس، إنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم، ولكن لا يفطنون ولا يحسون، لانطماس نور الإيمان فى قلوبهم، وإذا قيل للمنافقين: آمنوا إيمانا صادقا، لا يشوبه نفاق ولا رياء، كما آمن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وأخلصوا فى إيمانكم وطاعتكم لله، قالوا: أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة، أمثال "صهيب، وعمار، وبلال" ناقصي العقل والتفكير ؟! قال البيضاوي: وإنما سفهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء،

ومنهم موالى كصهيب، وبلال، الهمزة للإنكار مع السخرية والاستهزاء، ألا إنهم هم السفهاء، حقاً، لأن من ركب متن الباطل، كان سفيهاً بلا امتراء، ولكن لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل، وذلك أبلغ فى العمى، والبعد عن الهدى.. أكد ونبه وحصر السفاهة فيهم، ثم قال تعالى منبهاً إلى مصانعتهم ونفاقهم، ''وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا''وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم، أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقاً ومصانعة وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم، أهل الضلال والنفاق، قالوا لهم نحن على دينكم، وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد، وإنما نستهزئ بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان، الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال.. قال ابن عباس: يسخر بهم للنقمة منهم ويملي لهم كقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(183)﴾سورة الأعراف. قال ابن كثير: هذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج الخبر عن الجزاء مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه، فاللفظ متفق والمعنى مختلف، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(40)﴾سورة الشورى، ومثل: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَّ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَّ مَعَ الْمُتَّقِينَ(194)﴾سورة البقرة، فالأول ظلم، والثاني عدل. أي ويزيدهم - بطريق الإمهال والترك -فى ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويترددون حيارى، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا، لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم، فلا يبصرون رشداً، ولا يهتدون سبيلا. واستبدلوا الكفر

بالإيمان، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهدى، ما ربحت صفقتهم فى هذه المعاوضة والبيع، وما كانوا راشدين فى صنيعهم ذلك، لأنهم خسروا سعادة الدارين.. ثم ضرب تعالى مثلين، وضح فيهما خسارتهم الفادحة فقال:

مثالهم فى نفاقهم وحالهم العجيبة فيه، كحال شخص أوقد ناراً ليستدفئ بها ويستضئ، فما اتقدت حتى انطفأت، وتركته فى ظلام دامس، وخوف شديد، فلما انارت المكان الذى حوله فابصر وامن، واستانس بتلك النار المشعهالمضيئه﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ ﴾أى أطفأها الله بالكلية، فتلاشت النار وعدم النور، وأبقاهم فى ظلمات كثيفة، وخوف شديد، يتخبطون فلا يهتدون، قال ابن كثير: ضرب الله للمنافقين هذا المثل، فشبههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها، واستأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله. فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار فى ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدى، فكذلك هؤلاء المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي عن الرشد، وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير، ولا يعرفون طريق النجاة، هم كالصم لا يسمعون خيرا، كالخرس لا يتكلمون بما ينفعهم، كالعمى لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله، ولا يرجعون عما هم فيه من الغي والضلال.. ثم ثنى تعالى بتمثيل آخر لهم، زيادة فى الكشف والإيضاح.

أو مثلهم فى حيرتهم وترددهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد، أظلمت له الأرض، وأرعدت له السماء، مصحوب بالبرق والرعد والصواعق، فى ذلك

السحاب ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف، يضعون رؤوس أصابعهم فى آذانهم لدفع خطر الصواعق، وذلك من فرط الدهشة والفزع، كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم، خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة، ﴿وَالله مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾جملة اعتراضية أي والله تعالى محيط بهم بقدرته، وهم تحت إرادته ومشيئته لا يفوتونه، كما لا يفوت من أحاط به الأعداء من كل جانب، يقارب البرق لشدته وقوته وكثرة لمعانه، أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة، كلما أنار لهم البرق الطريق مشوا فى ضوئه، وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه، وقفوا عن السير وثبتوا فى مكانهم.. وفي هذا تصوير لما هم فيه من غاية التحير والجهل، فإذا صادفوا من البرق لمعة – مع خوفهم أن يخطف أبصارهم – انتهزوها فرصة فخطوا خطوات يسيرة، وإذا خفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير، وثبتوا فى أماكنهم خشية الترديفى حفرة، لو أراد الله لزاد فى قصف الرعد، فأصمهم وذهب بأسماعهم، وفى ضوء البرق فأعماهم وذهب بأبصارهم، إنه تعالى قادر على كل شئ، لا يعجزه أحد فى الأرض ولا فى السماء، قال ابن جرير: إنما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كل شئفى هذا الموضع، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قادر.

البلاغة:

تضمنت الآيات الكريمة وجوها من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

- أولا: المبالغة فى تكذيب المنافقين فى دعوى الإيمان﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾وكان الأصل أن يقول: "وما آمنوا" ليطابق قوله:﴿مَن يَقُولُ آمَنَّا﴾ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم، لإخراج ذواتهم من عداد المؤمنين، وأكده بالباء للمبالغة فى نفي الإيمان عنهم.
- ثانياً: الاستعارة التمثيلية﴿يُخَادِعُونَ اللهَ ﴾شبه حالهم مع ربهم فى إظهار الإيمان وإخفاء الكفر، بحال رعية تخادع الملك، واستعير اسم المشبه به للمشبه بطريق الاستعارة، أي يعملون عمل المخادع الذى يضحك على نفسه.
- ثالثا: صيغة القصر. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾وهذا من نوع "قصر الموصوف على الصفة" أي نحن ليس إلاَّ.
- رابعا: الكناية اللطيفة﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾المرض فى الأجسام حقيقة وقد كنى به عن النفاق لأن المرض فساد للبدن، والنفاق فساد للقلب.
- خامسا: تنويع التأكيد﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾جاءت الجملة مؤكدة بأربع تأكيدات [أَلاَ] التى تفيد التنبيه، و[إِنَّ] التى هى للتأكيد، وضمير الفصل [هُمْ] ثم تعريف الخبر [الْمُفْسِدُونَ] ومثلها فى التأكيد﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾وهذا رد من الله تعالى بأبلغ رد وأحكمه.
- سادساً: المشاكلة﴿الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾سمى الجزاء على الاستهزاء استهزاءً بطريق (المشاكلة) وهى الاتفاق فى اللفظ، مع الاختلاف فى المعنى.

- سابعاً: الاستعارة التصريحية﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾المراد استبدلوا الغَيَّ بالرشاد، والكفر بالإيمان، فخسرت صفقتهم ولم تربح تجارتهم، فاستعار لفظ الشراء للاستبدال ثم زاده توضيحاً بقوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾وهذا هو الترشيح الذى يبلغ بالاستعارة الذروة العليا من البيان.

- ثامنا: التشبيه التمثيلى﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾وكذلك فى﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾شبه فى المثال الأول المنافق بالمستوقد للنار، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، وفى المثال الثانى شبه الإسلام بالمطر، لأن القلوب تحيا به كحياة الأرض بالماء، وشبه شبهات الكفار بالظلمات، وما فى القرآن من الوعد والوعيد بالرعد والبرق... الخ ((قال الفخر الرازي: والتشبيه ههنا فى غاية الصحة، لأنهم بإيمانهم أولا اكتسبوا نورا، ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك النور، ووقعوا فى حيرة عظيمة، لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين، لخسران نفسه أبد الآبدين)).

- تاسعاً: التشبيه البليغ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾أي هم كالصُمِّ، وكالبُكْمِّ وكالعُمْيِّ، في عدم الاستفادة من هذه الحواس، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغا، كقول القائل: هو بدر، وقول الشاعر:

كأنـك شـمس والملـوك كواكـب   إذا طلعـت لم يبـد مـنهم كوكـب

- عاشراً: المجاز المرسل﴿يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾وهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء، أى رؤوس أصابعهم، لأن دخول الأصبع كلها فى الأذن لا يمكن، ففيه مجاز بالجزئية.

- الحادى عشر: توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، وهذا له وقع فى الأذن حسن، وأثر فى النفس رائع، مثل:﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾،﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾،﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾إلخ وهو من المحسنات البديعية.

الفوائد:

الأولى: الغاية من ضرب المثل: تقريب البعيد، وتوضيح الغامض حتى يصبح كالأمر المشاهد المحسوس، وللأمثال تأثير عجيب فى النفس، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

الثانية: وصف تعالى المنافقين فى هذه الآيات بعشرة أوصاف، كلها شنيعة وقبيحة، تدل على رسوخهم فى الضلال وهى (الكذب، الخداع، المكر، السفه، الاستهزاء، الإفساد فى الأرض، الجهل، الضلال، التذبذب، السخرية بالمؤمنين) أعاذنا الله من صفات المنافقين.

الثالثة:حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين، مع أنهم كفار وعلمه ﷺ بأعيان بعضهم، ما أخرجه البخاري أن النبي ﷺ قال لعمر: "أكره أن يحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه".

لطيفة:

قال العلامة ابن القيم: تأمل قوله تعالى:﴿ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ﴾ولم يقل: "ذهب الله بنارهم" مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية﴿اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو "النور" وأبقى ما فيها من الإحراق وهو "النارية" !! وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ولم يقل بضوئهم، لأن الضوء زيادة فى النور، فلو قيل: (ذهب الله بضوئهم)لأَوْهَمَ الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل!! وتأمل كيف قال: ﴿ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ﴾فوحد النور ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾فجمعها، فإن الحق واحد، هو (صراط الله المستقيم)، الذى لا صراط يوصل سواه، بخلاف طرق الباطل، فإنها متعددة ومتشعبة، ولهذا أفرد سبحانه "الحق" وجمع "الباطل" فى آيات عديدة مثل قوله تعالى: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(257)﴾[سورة البقرة] وقوله: [﴿الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ(1)﴾سورة الأنعام] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَتَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(153)﴾[سورة الأنعام] فجمع سبل الباطل، ووحد سبيل الحق.[1]

أما الحكيم الترميذي في كتابه الأمثال في الكتاب والسنة، فيذهب مذهبا آخر في تفسير الآيات التي ضرب الله فيها المثل في بداية سورة البقرة، فقال:

1) صفوة التفاسير – الجزء الأول – محمد علي الصابوني

مثل المنافق الذي تكلم بكلمة الإيمان مرائيا للناس كان له نور بمنزلة المستوقد نارا يمشي في ضوئها ما دامت تتقد ناره فإذا ترك الإيمان صار في ظلمة كمن أطفئت ناره فقام لا يهتدي ولا يبصر ذلك، ثم قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾أي بإيمانهم الذي تكلموا به وتركهم في ظلمات لا يبصرون في ضلالة لا يبصرون الهدى هذا قول مقاتل، وقال قتادة هذا مثل ضربه الله تعالى للمنافق الذي تكلم بكلمة الإيمان ظاهراً فناكَحَ وَوَارَثَ بها وحقن بها دمه وماله، فلما كان عند الموت ولم يك مصدقا بها سلبت عنه فترك في كرب وظلمة فتحير فيها كما كانت معاملته في الدنيا في حق الله سبحانه وتعالى، وقال مجاهد رحمه الله﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾إلى إقبالهم إلى المؤمنين وذهب بنورهم يعني، ذهاب نورهم عند إقبالهم إلى المشركين فالمنافق قلبه متحدر لا يستقر فيه شيء كلما برق فيه نور الحق خرج من الجانب الآخر فقلبه كنفق اليربوع يدخل من بابويخرج من باب.

أما القول الثاني: فهذه الآية مثل اليهود مع نبينا مثلهم كمثل رجل يكون في ضيق وتعب وشدة وظلمة ينتظر الفرج والمخرج والضياء والنوركانوا ينتظرون خروج محمد ﷺوعرفوا أنه الحق فكذبوه وحسدوه مخافة أن يذهب عنهم عزهم ومأكلتهم، ذهب الله بنورهم أي بالحلاوة التي كانت في قلوبهم عقوبة لهم بجحودهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون الهدى، وأيضا مثلهم كمثل الذي استوقد نارا في مفازة مهلكة ليأمن بها فلما أضاءت ما حوله، أطفئت ناره وبقي في ظلمة، فكذلك اليهود استنصروا به قبل خروجه وطلبوا خروجه ليأمنوا من سيف الفرقة، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين يعني اليهود،

وبئس ما اشتروا به أنفسهم، وبئس ما ربحوا بعوض قليل من الدنيا وهو ما كانوا يصيبون من سفلة اليهود من المأْكَلة في كل عام.

أما القول الثالث: وقيل ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾أي مثل المنافقين في القرآن مع القرآن كقوم نزلوا في فلاة ليلا فجاءهم مطر شديد، وإنما شبه القرآن بالمطر لأن حياة الناس في المطر كما أن في القرآن حياة ومنفعة لمن آمن به، فمثل المنافقين بتكذيب القرآن كمثل مطر نزل من السماء ليلا قرا وفيه البرق وشدة الرعد، يقول ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾يقول في هذا المطر ظلمات ورعد وبرق يقول يمطر في ليلة مظلمة، وفي ذلك المطر رعد وبرق فمثل المطر مثل القرآن كما أن في المطر حياة كذلك في القرآن حياة لمن آمن به وحياة الآخرة بالإيمان، ومثل الظلمات مثل الكفر ومثل الرعد ما خوفوا به من الوعيد ومثل البرق الذي في المطر مثل الإيمان وهو النور الذي في القرآن يهتدي الناس ببيان القرآن كما يهتدي الناس في مثل تلك الليلة بالبرق، شبه القرآن بالمطر وشبه تخويف القرآن بالرعد. مثل آخر قوله ﴿يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾أي من خوف الصوت من شدة الرعد هكذا مثل المنافق إذا سمع قراءة القرآن من محمدﷺختم على أذنيه كراهة له، بمنزلة الذي يجعل إصبعيه في أذنيه من شدة الصاعقة حذر الموت فالمنافق يجعل إصبعيه في أذنيه ولا يسمع إلى صوت النبيﷺ، مخافة أن يتعظ به وتدخل حلاوة قراءته في قلبه. [1]

1) الأمثال من الكتاب والسنة- أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترميذي

أما النسفي في كتابه - مدارك التنزيل وحقائق التأويل – فيوضح ضرب المثل في هذه الآيات فيقول: لما جاء بحقيقة صفتهم بضرب المثل؛ زيادة في الكشف وتتميما للبيان ولضرب الأمثال في إبراز خفيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق تأثير ظاهر، وقد استعير المثل للحال، أو الصفة، أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد نارا، فلا يكون تمثيل الجماعة بالواحد، أو قصد جنس المستوقدين، أو أريد الفوج الذي استوقد ناراً على أن ذوات المنافقين لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد إنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد، ومعنى "استوقد" أوقد.ووقود النار سطوعها، والنار جوهر لطيف مضيءحار محرق، واشتقاقها من نارَ، ينورُ إذا نفر؛ لأن فيها حركة واضطرابا، والإضاءة فرط الإنارة، وجواب "فلما"، ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ ، وهو ظرف زمان والعامل فيه جوابه مثل إذا، وما موصولة، وحوله نصب على الظرف أو نكرة موصوفة، والتقدير: فلما أضاءت شيئا ثابتا حوله، وجمع الضمير وتوحيده للحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى، والنور ضوء النار وضوء كل نير، ومعنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهبا، ومعنى ذهب به: استصحبه ومضى به، والمعنى: أخذ الله بنورهم وأمسكه وما يمسك فلا مرسل له، فكان أبلغ من الإذهاب، ولم يقل ذهب الله بضوئهم لقوله: فلما أضاءت، لأن ذكر النور أبلغ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة، والمراد إزالة النور عنهم رأسا: ولو قيل ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاببالزيادة وبقاء ما يسمى نوراً، ألا ترى كيف ذكر عقيبه: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾والظلمة عرض

ينافي النور، وكيف جمعها وكيف نكرها وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة لايتراءى فيها شبحان وهو قوله﴿لاَّ يُبْصِرُونَ﴾. وللآية تفسير آخر: وهو أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذاالتمثيل ليمثل هداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم في الظلمات، وتنكير النار للتعظيم.[1]

يواصل النسفي في كتابه قوله: ثنى الله سبحانه وتعالى في شأنهم بتمثيل آخر لزيادة الكشف والإيضاح.فشبه دين الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيابه حياة الأرض بالمطر. وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا من جهة أهل الإسلام بالصواعق. والمعنى: أو كمثل ذوى صيب، فحذفمثل لدلالة العطف عليه وذوى لدلالة يجعلون عليه. والمرادكمثل قوم أخذتهم السماء بهذه الصفة فلقوا منها ما لقوا، فهذا تشبيه أشياء بأشياء إلا أنه لم يصرح بذكر المشبهات كما صرح في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ(58)﴾سورة غافر.[2] وقول امرئ القيس:

كـأن قلـوب الطـير رطباويابسـا   لدى وكرها العناب والحشف البالي

---

1) تفسير النسفي – مدارك التنزيل وحقائق التأويل

2) نفس المصدر السابق

أما عطف أحد التمثيلين على الآخر بـ (أو) لأنها في أصلها لتساوي شيئين فصاعداالشك عند البعض، ثم استعير لمجرد التساوي كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين[1] ويريد أنهما سيان في استصواب أن يجالس وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا(24)﴾سورة الإنسان، أي الآثم والكفور سيان في وجوب العصيان، فكذا هنا معناه أن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتي هاتين القصتين، وأن الكيفيتين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب وإن مثلتها بهما جميعا فكذلك، والصيب: المطر الذي يصوب أي ينزل ويقع، ويقال للسحاب صيب أيضا، وتنكير صيب لأنه نوع من المطر شديد هائل كما نكرت النار في التمثيل الأول، والسماء هذه المظلة، وعن الحسن: أنها موج مكفوق والفائدة في ذكر السماء ونفي أن يكون من سماء؛ أي من أفق واحد من بين سائر الآفاق؛ لأن كل أفق من آفاقها سماء، ففي التعريف مبالغةكما في تنكير صيب وتركيبه وبنائه، وفيه دليل على أن السحاب من السماء ينحدر ومنها يأخذ ماءه، وقيل أنه يأخذه من البحر ويرتفع.[2]

نصيحة:

---

1) هو التابعي الأشهر؛محمد بن سيرين الأنصاري، مولاهم وسيرين أمه، سبيت على يد خالد بن الوليد حين فتح بلدته – عين التمر – غربي الكوفة، وكان محمد مولى لأنس بن مالك، وكان كاتبه، أجمعت الأمة على عدالته وعلمه وفقهه وورعه، وقد آتاه الله ملكة تعبير الرؤى، وله في ذلك مؤلفات، ولد محمد سنة 40 هـ وتفي رحمه الله سنة 110 هـ. تهذيب التهذيب (5 / 139–141)

2) نفس المصدر السابق

بعد ما اتضح للقارئ صورة المثال الذي ضربه الله تعالى للمنافقين، من قول علماء التفسير واللغة والبلاغة والبيان، فإن النفاق ظاهرة نفسية إنسانية لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات، وهو الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، حيث يتجلى في إخفاء الثاني وإظهار الأول لكي يحصل المنافق على كل حقوقه الإجتماعية المادية، في المجتع المؤمن، ومع أن الظاهرة تعد ظاهرة مَرَضِيَة، فقد جاءت الأحاديث النبويةتوضح علاماتها وأعراضها بأصدق بيان وأبلغه كقول الرسول ﷺ: "أربع خلال من كن فيه كان منافقا خالصا: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها".

الراوي: عبدالله بن عمرو بن العاص المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: 3178، خلاصة حكم المحدث: (صحيح)

وفي رواية أخرى: عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان وزاد فى رواية لمسلم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم" متفق عليه .

كل هذا البيان من القرآن الكريم أو الأحاديث الشريفة عن المنافقين وصفاتهم، من أجل وقاية المجتمع المسلم في الوقوع في شراكه، فيصيبهم ما أصابهم، فكأن الشريعة السمحاءأعطت العلاج الوقائي لأخطر ظاهرة عرفتها البشرية بعد هجرة النبيء عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، حيث عرفت مكة

بمعاداة الدين الجديد علانية والتصدي له بكل ما أوتيت من قوة، وبعد بزوغ فجر المجتمع الإيماني الجديد في المدينة المنورة، كانت الأوس والخزرج تتقاسم النفوذ مع يهود يثرب، وخوفا من تضائل أو اختفاء هذا النفوذ الاجتماعي والسياسي، ظهر النفاق كحل تتبناه النفوس المريضة للمحافظة على كيانها في المجتمع المسلم الناشئ.

لقد فصل القرآن الكريم في صفات المنافقين تفصيلا ليس على سبيل تتبع الظاهرة تاريخيافحسب، ولكن تبيانا لها بأوضح بيان لتتضح الصورة لأمة الإسلام ليكونوا على حذر من أن تنخر مجتمعاتهم مثل هذا المرض الذي يتسبب في فساد أفراده وانحدارهم نحو الهاوية.

ومن أهم الصفات المذكورة في كتاب الله عن المنافقين ما يلي:

1- مرض القلب..﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(10)﴾سورة البقرة .

2- الطمع الشهواني.. ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا(32)﴾سورة الأحزاب.

3- الزيغ بالشبه.. ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(53)﴾سورة الحـج.

4- الظن السيئ بالله ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا(6)﴾سورة الفتح.

5- الاستهزاء بآيات الله

6- الجلوس الى المستهزئين بآيات الله ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا(140)﴾سورة النساء

7- التستر ببعض الأعمال المشروعة للإضرار بالمؤمنين ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(107)﴾سورة التوبة.

8- التفريق بين المؤمنين والدَّسِّ والوقيعة وإشعال نار الفتنه واستغلال الخلافات وتوسيع شقتها .

9- الإفساد في الأرض .

10- وادعاء الإصلاح.. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(11)﴾سورة البقرة، ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ(205)﴾سورة البقرة

11- السفه .

12- ورمي المؤمنين بالسفه..﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ(13)﴾سورة البقرة.

13- اللدد في الخصومة مع إتيانه في بعض الأحيان بالقول الجميل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَّ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ(204)﴾سورة البقرة.

14- عدم الأوبة للحق وتأخذه الحميه والغضب بالباطل وبالإثم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَّ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ(206)﴾سورة البقرة.

15- موالاة الكافرين .

16- التربص بالمؤمنين ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(138)﴾سورة النساء، ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِّ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُّ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُّ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً(141)﴾سورة النساء.

17- الاتفاق مع أهل الكتاب ضد المؤمنين .

18- والتولي في القتال ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا

وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَالله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(11)، لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ(12) ﴾سورة الحشر.

19- الطبع على القلوب فلا يفقهون ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ(16) ﴾سورة محمد.

20- فتنة النفس والتربص والاغترار بالأماني ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(12)﴾سورة الحديد ،﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ الله وَغَرَّكُم بِالله الْغَرُورُ(14)﴾سورة الحديد.

21- مخادعة الله

22- الكسل في العبادات

23- الرياء

24- قلة الذكر

25- التذبذب بين المؤمنين والكافرين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً

(142) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(143)﴾سورة النساء.

26- مخادعة المؤمنين أيضاً ﴿يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ(9)﴾سورة البقرة.

27- التحاكم إلى الطاغوت

28- الصدود عما أنزل الله وعدم الرضا بالتحاكم اليه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا(61)﴾سورة النساء.

29- الإفساد بين المؤمنين ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(47)﴾سورة التوبة.

30- الحلف الكاذب

31- والخوف والجبن والهلع

32- وكره المسلمين والخروج عن دائرتهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ(56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ(57)﴾سورة التوبة، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ

أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(4)﴾سورة المنافقون.

33- ظهور الرعب عليهم عند ذكر القتال في آيات الله ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ(20)﴾سورة محمد.

34- الكذب

35- إخلاف الوعد

36- خيانة الأمانة..حديث (آيه المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان)..وفي رواية (وإذا خاصم فجر).

37- يعيبون العمل الصالح

38- يرضون ويسخطون لحظوظ أنفسهم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ(58)﴾سورة التوبة.

39- يسخرون من العمل القليل من المؤمنين -ولا يرضيهم شيء ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(79)﴾سورة التوبة.

40- الرضا بأسافل المواضع ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (86) رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ(87)﴾سورة التوبة.

41- الأمر بالمنكر

42- والنهي عن المعروف

43- البخل

44- نسيان الله ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(67) ﴾سورة التوبة.

45- الغدر وعدم الوفاء بالعهود مع الله ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ(77)﴾سورة التوبة.

46- الفرح بالتخلف عن الجهاد وكره ذلك

47- التواصي بالتخلف عن الجهاد﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ(81)﴾سورة التوبة.

48- التخذيل والتثبيط

49- الإرجاف ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا(13)﴾سورة الأحزاب.

50- لا ترى نصرة الله لهم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا(145)﴾سورة النساء.

51- قطع الأرحام ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ(22)﴾سورة محمد.

52- طاعة الكفار والمنافقين والفاسقين في بعض الأمر ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ الله سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَالله يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ(26)﴾سورة محمد.

53- يكرهون ما يرضي الله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ الله وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ(28)﴾سورة محمد.

54- ظهور الأضغان منهم.

55- التعرف عليهم في لحن القول ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ الله أَضْغَانَهُمْ(29) وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَالله يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ(30)﴾سورة محمد.

56- البطء عن المؤمنين ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (72) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا(73) ﴾سورة النساء.

57- لا ينفعهم القرآن بل يزيدهم رجسا الى رجسهم ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ(125) ﴾سورة التوبة.

58- العودة الى ما نهوا عنه.

59- التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ(8) ﴾سورة المجادلة.

60- الاستئذان عن الجهاد بحجة الفتنة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ(49) ﴾سورة التوبة.

61- اتخاذ الأعذار عند التخلف ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ

وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(94) ﴾سورة التوبة.

62- الاستخفاء من الناس﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا(108) ﴾سورة النساء.

63- يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا (قصة الإفك) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالله يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(19) ﴾سورة النـــور.

64- الفرح بما يصيب المؤمنين من ضراء والاستياء بما يمكن الله لهم ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ(50) ﴾سورة التوبة.

65- زيادة في الجسم في بعض الأحيان ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ الله أَنَّى يُؤْفَكُونَ(4) ﴾سورة المنافقون، ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ(55) ﴾سورة التوبة.

وضمن تحليل واحد فإنّه يمكن تقسيم الآيات الّتي وردت في القرآن وكان الغرض منها التّعرف على المنافقين إلى أربعة مجاميع:

- المجموعة الأولى: آيات حدّدت السلوك السياسي والاجتماعي للمنافقين في المجتمع الإسلامي.

- المجموعة الثانية: آيات بيّنت الخصوصيات الفردية للمنافقين، وعملت على تحليل وسبر غور طبيعتهم وشخصيتهم النفسية.
- المجموعة الثالثة: آيات تُفْشي مناحي المنافقين الثقافية.
- المجموعة الرابعة: آيات تبيّن كيفية التعامل والتصرّف مع المنافقين.

لقد طُرِحَت في آيات المجموعة الأُولى علامات داء النفاق السياسية والاجتماعية، وطُرِحت في آيات المجموعة الثانية علاماته الفردية والنفسية.

أمّا المجموعة الثالثة فقد بيّنت طرق المنافقين المتخذة لأجل توسيع رقعة مرض الكفر والنفاق، وتدمير الإسلام. وفي المجموعة الرابعة تم عرض الوسائل الكفيلة بإحباط ممارساتهم. مع أنّ ثمة آياتٍ وردت في القرآن الكريم توضّح النفاق العقائدي، ولكنّ الآيات الّتي تبحث في خصوصيات المنافقين قامت في الحقيقة بتحديد سلوكهم النفاقي، سواء كان ذلك نفاقاً عقائدياً أم لا.إنّ الخصوصيات التي تُطرَح هي المعيار لمعرفة السلوك النفاقي، وكل شخصٍ ومجموعةٍ تنتهج مثل هذا السلوك، فسيُحسَب في عِداد المنافقين.[1]

1) الموقع: http: //www.erfan.ir/article/article.php?id=22237: الشيخ الأستاذ حسين أنصاريان

بعدكل هذا، على المؤمن الصادق أن يكون على حذر من أن يتصف بأحدها أو جميعها لكي يكتب من الناجين، فقد كان سلفنا الصالح رحمهم الله –مع عمق إيمانهم وكمال علمهم-يخافون النفاق أيّماخوف فقد أخرج البخاري: تعليقًا-أن ابن أبي مليكةرحمه الله قال: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺكلهم يخاف النفاق على نفسه.

قال الحافظ بن حجر (الفتح 1/ 111) (والصحابة الذين أدركوا ابن أبي مليكة من أجلهم: عائشة وأختها أسماء، وأم سلمة، والعبادلة الأربعة وأبو هريرة..فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة من أجل من هؤلاء، كعلي وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانو يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك، فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم...

وكان أبو الدرداء ﷺ إذا فرغ من التشهد في الصلاة يتعوذ بالله من النفاق، ويكثر التعوذ منه فقال له أحدهم: ومالك يا أبو الدرداء أنت والنفاق ؟ فقال دعنا عنك، فوالله إن الرجل ليقلب عن دينه في الساعة الواحدة فيخلع منه.

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: (ما خافه –النفاق–إلامؤمن ولاأمنه إلامنافق) أخرجه البخاري تعليقًا.

وسئل الإمام أحمد: ما تقول فيمن لا يخاف على نفسه النفاق ؟ قال: (ومن يأمن على نفسه النفاق) ؟

يقول بن القيم: (وبحسب إيمان العبد ومعرفته يكون خوفه أن يكون من أهل هذه الطبقة، ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسابقيها على أنفسهم أن يكونوا منهم، فكان عمر يقول لحذيفة: ناشدتك الله، هل سماني رسول الله مع القوم؟ فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا، يعني لا أفتح عليّ هذا الباب في تزكية الناس، وليس معناه أنه لم يبرأ من النفاق غيرك.

فتأمل رحمك الله ما عليه أولئك السلف الصالح الأبرار من خوف شديد من النفاق ودواعيه، ثم انظر إلى حال الأكثرين منا في هذا الزمان، فمع ضعف الإيمان وغلبة الجهل تجد الأمن من النفاق والغفلة عنه ! فالله المستعان.

۞۞۞

﴿إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(26) ﴾سورة البقرة.

المعنى:

يقول تعالى في الردّ على مزاعم اليهود والمنافقين:

الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب أيّ مثل كان، بأي شيء كان، صغيرا كان أو كبيرا، سواء كان هذا المثل بالبعوضة أو بما هو دونها في الحقارة والصغر، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها.

أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق، لا يقول إلا الحق، وأن هذا المثل من عند الله، وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون: ماذا أراد الله من ضرب الأمثال؛ بمثل هذه الأشياء الحقيرة، فيرد الله عليهم: يضل بهذا المثل كثيرا من الكافرين لكفرهم به، ويهدي به كثيرا من المؤمنين لتصديقهم به؛ فيزيد أولئك ضلالة وهؤلاء هدىً، وما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله الجاحدين بآياته.

المناسبة:

لما بين تعالى بالدليل الساطع، والبرهان القاطع، أن القرآن كلام الله لا يطرأ إليه شك، وأنه كتاب معجز أنزله الله على خاتم المرسلين، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة من أقصر سوره، ذكر هنا شبهة أوردها الكفار للقدح فيه، وهي أنه جاء فى القرآن ذكر "النحل، والذباب، والعنكبوت، والنمل" إلخ وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء، فضلا عن كلام رب العالمين، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة، ورد عليهم بأن صغر هذه الأشياء لا يقدح فيفصاحة القرآن وإعجازه، إذا كان ذكر المثل مشتملا على حكم بالغة.

اللغة:

- لا يستحي: الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم، والمراد به هنا لازمه وهو الترك، قال الزمخشري: أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي من ذكرها لحقارتها.
- فما فوقها: فما دونها من الصغر.
- الفاسقون: أصل الفسق عند العرب: الخروج عن الشيء، والمنافق فاسق لخروجه عن طاعة ربه، قال الفراء: الفاسق مأخوذ من قولهم فسقت الرطبة من قشرها أي خرجت، ويسمى الفاسق فاسقا لخروجه عن طاعة الله، وتسمى الفأرة فويسقة لخروجها لأجل المضرة.

البلاغة:

قوله:﴿لا يَسْتَحْيِي﴾من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، والمعنى: لا يترك فعبر بالحياء عن الترك، لأن الترك من ثمرات الحياء، ومن استحيا من فعل شيء تركه.

الفوائد:

- الأولى: قال الزمخشري: التمثيل إنما يُصَارُ إليه لما فيه من كشف المعنى الغامض، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، فليس العظم والحقارة فى المضروب به المثل إلا أمرا تستدعيه حال المتمثل له، ألا ترى إلى الحق لما كان أبلج واضحاً جلياً، كيف تمثل له بالضياء والنور ؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة ؟ ولما كان حال الآلهة التى جعلها الكفار أنداداً لله

تعالى ليس أحقر منها وأقل، لذلك ضرب لها المثل ببيت العنكبوت فى الضعف والوهن، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(41) ﴾سورة العنكبوت؛ وجعلت أقل من الذباب وأخس قدرا، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ(73) ﴾سورة الحـج؛ والعجب منهم كيف أنكروا ذلك ؟ وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم، والطيور، والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم، سائر في حواضرهم وبواديهم

- الثانية: قدم الإضلال على الهداية﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمرا فظيعاً يسوءهم ويفت فى أعضادهم، وأوثرت صيغة الاستقبالإيذانا بالتجددوالإستمرار، أفاده العلامة أبو السعود.[1]

ذهب النسفي في كتابه – مدارك التنزيل وحقائق التأويل – أن هذه الآية جاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال وهو فن من كلامهم بديع، وفيه لغتان التعدي بنفسه وبالجار يقال: استحييته واستحييت منه وهما محتملان هنا، وضرب المثل صنعه من ضرب اللبن وضرب الخاتم، وما هذه إبهامية وهي التي اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاما وزادته عموما كقولك: أعطني كتابا...تريد أي كتاب كان،

1) صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني

أو صلة للتأكيد كالتي في قوله تعالى:﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾[1] كأنه قال: لايستحيي أن يضرب مثلا البتة؛ وبعوضة عطف على بيان لمثلا، أو مفعول ليضرب، ومثلا حال من النكرة مقدمة عليه، أو انتصبا مفعولين على أن ضرب بمعنى جعل واشتقاقها من البعض والقطع كالبضع والعضب يقال بعضه البعوض، ومنه بعض الشيء لأنه قطعة منه والبعوض في أصله صفة على فعول فغلبت.

نصيحة:

ضرب المثل في القرآن، صنف الناس إلى فريقين، فريق المصديقين والمتيقنين أن الذي ضرب المثل هو الحق وقوله حق، ففازوا بهذا التصديق أن وصفهم الله بالإيمان، الذي نالوا به شرف الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ..﴾؛ أما الصنف الثاني كذَّبوا وأنكروا الحق بأنتَقَوَّلُوا على الله، كيف يضرب الله المثل بالحقير من مخلوقاته؟ فضلوا بالإعتقاد وأضلوا بالقول، فسمي خروجهم عن اتباع الحق فسقا، فاحذر أن يكون انتهاؤك إليهم بقصد أو بدون قصد وقابل خطاب مولاك بالتصديق والتسليم تكن من الصالحين.

۞۞۞

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ(171)﴾سورة البقرة.

---

1) سورة النساء (الآية 155)

المعنى:

أي مثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة، ومثل من يدعوهم إلى الهدى، كمثل الراعيالذي يصيح بغنمه ويزجرها، فهي تسمع الصوت والنداء، دون أن تفهم الكلام المراد، أو تدرك المعنى الذي يقال لها، فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة، لا يفهمون ما تدعوهم إليه ولا يفقهون، يسمعون القرآن ويصمون عنه الآذان. ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا(44) ﴾سورة الفرقان، فهم صم عن سماع الحق، بكم أي خرس عن النطق به، عمي عن رؤيته، فهم لا يفقهون ما يقال لهم، لأنهم أصبحوا كالدواب فهم في ضلالهم يتخبطون..وخلاصة المثل – والله أعلم – مثل الذين كفرواكالبهائم التي لاتفقه ما يقول الراعي أكثر من سماع الصوت دون أن تفهم المعنى، وهو خلاصة قول ابن عباس. [1]

الفوائد:

قال ابن القيم في أعلام الموقعين عن قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾قال: لك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وأن تجعله من التشبيه المفرق، فإن جعلته من المركب كان تشبيها للكفار -في عدم فقههم وانتفاعهم -بالغنم التي ينعق بهاالراعي فلاتفقه من قوله شيئاغير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء، وإن جعلته من التشبيه المفرق: فالذين

1) نفس المصدر السابق

كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق والله أعلم.

اللغة:

- [ينعق] يصيح يقال: نعق الراعي بغنمه ينعق نعيقا إذا صاح بها وزجرها.

قال الأخطل:

فـانْعِقْ بِضَـأْنِك يـا جريـر فـإنَّما مَنَّتْكَ نفسـك في الخـلاء ضـلالا

البلاغة:

1- ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾فيه تشبيه (مرسل ومجمل) مرسل لذكر الأداة ومجمل لحذف وجه الشبه، فقد شبه الكفار بالبهائم التى تسمع صوت المنادي دون أن تفقه كلامه وتعرف مراده.

2- ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهو "تشبيه بليغ" أي هم كالصم في عدم سماع الحق، وكالعمي في عدم رؤية الهدى، وكالبكم في عدم الانتفاع بنور القرآن.[1]

نصيحة:

---

1) نفس المصدر السابق.

البهيمة تنقاد للذي يرعاها، انقياد تسخير لغياب العقل الذي تُمَيِّزُ به، لذا حين سماع أصوات راعيها لا تعي ولا تدرك قوله، أما البشر فقد أكرمهم الخالق الحكيم بالعقل، وزودهم بقدراته لكي يفكروا ويُمَيِّزُوا بين الحق والباطل، وبين النور والظلمات، فإذا غُطِّيَ العقل بغطاء الكفر والجحود، نزل من المرتبة التي قيَّدَه اللهُ فيها من التكريم وأصبح صاحبه والبهيمة سواء.

و العقل، جعل الله له منافذ يتلقى بواسطتها العلم والمعرفة، وحباه بالقدرة على التفكير بربط العلاقات وتركيب الأجزاء وتحليل الكليات للوصول إلى معرفة الحق، وقد أنزل الله كلامه بالحق، ودعاه للتدبر والتفكر فيه، لكي يرتقي إلى مصاف العالمين به، وما ضُرِبَ المثل في القرآن إلا ليدخل المتفكر فيه مع زمرة العلماء.

اجتهد أن يكون لك عقل مفكر، وقلب متدبر، ولا تكن شبيها بالذي لا يسمع إلا دعاءً ونداءً.

۞۞۞

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(261) ﴾سورة البقرة.

سبب النزول:

نزلت في "عثمان بن عفانﷺ" و"عبد الرحمن بن عوفﷺ" في غزوة تبوك، حيث جهز (عثمان) ألف بعير بأحلاسها وأقتابها ووضع بين يدي رسول الله ﷺألف دينار، فصار رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم، وأتى (عبد الرحمن بن عوفﷺ) النبىﷺ بأربعة آلاف درهم فقال يا رسول الله: كان عندى ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسى ولعيالى أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها ربي، فقال له رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت، فنزلت فيهما الآية﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِّ ..﴾الآية ((أخرجه البخاري)).

المعنى:

قال ابن كثير: هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أي مثل نفقتهم كمثل حبة زرعت فأنبتت سبع سنابل، كل سنبلة منها تحتوي على مائة حبة فتكون الحبة قد أغلت سبعمائة حبة، وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر لمن أخلص في صدقته، ولهذا قال الله تعالى:﴿وَاللهُّ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء﴾أي يضاعف الأجر لمن أراد على حسب حال المنفق، من إخلاصه وابتغائه بنفقته وجه الله. وذهب النسفي في تفسيره[1] على أن المضاف محذوف تقديره (مثل نفقتهم) كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة، والمنبت هو الله ولكن الحبة لما كانت سببا أسند إليها

1) تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأول – النسفي – ص 135

الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء ومعنى إنباتها سبع سنابل أن تخرج ساقا يتشعب منه سبع شعب لكل واحد سنبلة، وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر والممثل به موجود في الدخن[1] وربما فرخت ساق البرة في الأرض القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ على أن التمثيل يصح وإن لم يوجد على سبيل الفرض، والتقدير ووضع سنابل موضع سنبلات كوضع قروء موضع أقراء؛ وتلك المضاعفة لمن يشاء لا لكل منفق لتفاوت أحوال المنفقين أو يزيد على سبعمائة لمن يشاء، لأنه واسع الفضل والجود عليم بنيات المنفقين. (انتهى قول النسفي).

البلاغة:

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾شبه سبحانه الصدقة التى تنفق في سبيله بحبة زرعت وباركها المولى، فأصبحت سبعمائة حبة، ففيه تشبيه "مرسل مجمل" لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه، قال أبو حيان: وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر.

1- ﴿أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾إسناد الإنبات إلى الحبة إسناد مجازي، ويسمى "المجازالعقلي" لأن المنبت في الحقيقة هو الله تعالى لا الحبة، ولا الأرض.

نصيحة:

1) الدخن: هو حب أملس يابس بارد حابس للطبع، وقيل هو نوع الذرة. (المعجم الوسيط)

يقال أن المال عصب الحياة، وقوام الحضارات وبقاءها والإنسان بطبعه يحب المال ويسعى للإكثار منه، إلا أن الإنفاق أيضا من طبعه وذلك لكي تحصل له المتعة من وراء كسب المال وجمعه، فيصل في اعتقاده أن لا سعادة دنيوية إلا بجمع المال قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا(20) ﴾سورة الفجر، إلا أن الذي وقر الإيمان اليقيني في قلبه يكون وسط بين إثنتين، جمعه من حله، وانفاقه في مرضاة ربه، لا لشيء إلا أنه يعتقد أن ثواب الإنفاق في سبيل الله لا يقدر بثمن؛ ويؤمن بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ(272) ﴾سورة البقرة، ومضاعفةأجر المنفق أضعافا مضاعفة لا يعلمها إلا الله، فلا تبخل بالمال في سبيل الله، وكن صاحب يقين بأن الذي رزقك يمتحنك في دنياك بالمال لشدة حبك له، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ(8) ﴾سورة العاديات، واعْلَمْ أن مجاهدة نفسك في محابها يوصلك إلى درجة الصديقين والصالحين، ولك فيهم القدوة الحسنة.

إن أحسنت البذر وسقيته بالإخلاص في أيدي الفقراء والمساكين وفي سبيل الله، حصدت القناطير المقنطرة من الأجر على حبك له وإيثارك ومجاهدتك الشحَّ والبخل، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(16) ﴾سورة التغابن .

۞۞۞

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(266) ﴾سورة البقرة.

المعنى:

يا من كان وصفهم الإيمان، لا تحبطوا أجر الصدقة بالمن والأذى، بأن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه وذلك يأن يذكِّره النعمة على سبيل التطاول والتفضل، كالمرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء ولا يصدق بلقاء الله حتى يرجو ثوابا أو يخشيعقابا، فمثله كمثل الحجر الأملسالذي عليه شيء من التراب، يظنه الظان أرضا طيبة منبتةفإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب، فيبقى صلداأملس ليس عليه شيء من الغبار أصلا، كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالا صالحة، فإذا كان يوم القيامة، اضمحلت وذهبتفلا يجدون له ثوابا في الآخرة، فلا ينتفع بشيءمنها أصلاولا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد.. ثم ضربتعالى مثلا

آخر للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضات أي طلبا لمرضاته، وتصديقا بلقائه، وتحقيقا للثواب أي كمثل بستان كثير الشجر بمكان مرتفع من الأرض، وخصت بالربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها، أصابها مطر غزير، فأخرجت ثمارها جنيةمضاعفة، ضعفي ثمر غيرها من الأرض، فإن لم ينزل عليها المطر الغزير، فيكفيها المطرالخفيف، أو يكفيها الندى، لجودتها وكرم منبتها، ولطافة هوائها فهي تنتج على كلحال والله لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، أيحب أحدكم أن تكون له حديقةغناء، فيها من أنواع النخيل والأعناب والثمار الشيء الكثير ؟تَمُرُّ الأنهار من تحت أشجارها، ينبت له فيها جميع الثمار ومن كل زوج بهيج، أصابته الشيخوخة فضعف عن الكسب، وله أولاد صغار لا يقدرون على الكسب فأصاب تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار، فأحرقت الثمار والأشجار، أحوج ما يكون الإنسان إليها؟مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم، يبين الله لكم آياته في كتابهالحكيم، لكي تتفكروا وتتدبروا بما فيها من العبر والعظات.

الفوائد:

- الأولى: قال الزمخشري: المنُّ أن يعْتَدَّ على من أحسن إليه بإحسانه، وفي نوابغ الكلم "صنوان من منح سائله ومنّ، ومن منع نائله وضنَّ"، "طبع الآلاء أحلى من المنِّ وهي أمرُّ من الآلاء المنِّ"، وقال الشاعر:

وإن امــرءا أســدى إليَّ صــنيعة وذكـــر فيهـــا مـــرة للئـــيم

- الثانية: المطر أوله رشٌّ، ثم طشٌّ، ثم طلٌّ، ثم نضْحٌ، ثم هطَلٌ، ثم وابِلٌ، والمطر الوابل: الشديد الغزير.

- الثالثة: قال عمر بن الخطاب ﷺ يوما لأصحاب النبيﷺ: "فيمن ترون هذه الآية﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ نزلت قالوا: الله أعلم !! فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباسﷺ: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: ياابن أخي قل، ولا تحقر نفسك، فقال ابن عباس: ضربت مثلا بعمل لرجل غني يعمل بطاعةالله، ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله" أخرجه البخاري.

- الرابعة: قال الحسن البصرى: (هذا مثل قَلَّ والله من يعقله: شيخ كبير، ضعف جسمه، وكثر صبيانه، أفقر ما كان إلى جنته، فجاءها الإعصار فأحرقها، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا).

اللغة:

- [المنُّ] أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه، وأن يذكره النعمة على سبيل التطاولوالتفضل، قال الشاعر:

أفسدت بالمنِّ ما أسديت من حسـن ... لـيس الكـريم إذا أسـدى بمنَـان

- [رئاء الناس] أي لا يريد بإنفاقه رضى الله وإنما يريد ثناء الناس، وأصله من (الرؤية) وهو أن يرى الناس ما يفعله حتى يثنوا عليه ويعظموه،

- [صفْوان] الصفْوان: الحجر الأملس الكبير، قال الأخفش: وهو جمع، واحده صفْوانة وقيل: هو اسم جنس كالحجر.
- [وابلٌ] الوابل: المطر الشديد.
- [صلدا] الصلد: الأملس من الحجارة وهو كل ما لا ينبت شيئا، ومنه جبين أصلد.
- [برَبْوَة] الربوة: المكان المرتفع من الأرض، يقال: ربوة ورابية وأصله من رَبَا الشيء إذا زاد وارتفع.
- [طلٌّ] الطل المطر الخفيف الذي تكون قطراته صغيرة، وقال قوم منهم مجاهد: الطل الندى.
- [وإعصارٌ] الإعصار: الريح الشديدة التى تهب من الأرض، وترتفع إلى السماء كالعمود، ويقال لها: الزوْبَعَة.

البلاغة:

1- ﴿ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾من باب ذكر العام بعد الخاص، لإفادة الشمول لأن الأذى يشمل المنَّ.

2- ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾فيه تشبيه يسمى "تشبيها تمثيليا" لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، وكذلك يوجد تشبيه تمثيلي في قوله:﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ ﴾.

3- ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ..﴾الآية، لم يذكر المشبه ولا أداة التشبيه وهذاالنوع يسميه علماء البلاغة "استعارة تمثيلية" وهي تشبيه حال بحال لم يذكر فيه سوى المشبه به فقط، وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه، والهمزة للاستفهام والمعنى على التبعيد والنفي أي ما يَوَدُّ أحدٌ ذلك.

وقد أفاد النفسي في تفسيره قوله في هذه الآيات ما يلي:

أن الكاف في (كالذي) نصب صفة مصدر محذوف والتقدير إبطالا مثل إبطال الذي (ينفق ماله) أي لا تبطلوا ثواب صدقاتكم بالمنِّ والأذى كإبطال المنافق الذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يريد بإنفاقه رضا الله ولا ثواب الآخرة، ورئاء مفعول له؛ مثَّله ونفقته التي لا ينتفع بها البتة بحجر أملس عليه تراب، نزل عليه مطر عظيم القِطْر فتركه أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه، فلا يجدون ثواب شيء مما أنفقوا، أو الكاف في محل النصب على الحال أي لا تبطلوا

صدقاتكم مماثلين الذي ينفق، وإنما قال لا يقدرون بعد قوله: كالذي ينفق؛ لأنه أراد بالذي ينفق الجنس، أو الفريق الذي ينفق؛ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ما داموا مختارين الكفر.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾أي وتصديقا للإسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم لأنه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه، و(من) لابتداء الغاية وهو معطوف على المفعول له أي للإبتغاء والتثبيت والمعنى، ومثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله كمثل بستان في مكان مرتفع وخصَّها، لأن الشجر فيها أزكى وأحسن، ثمراً بربوة عاصم وشامي، (أُ كُلَهَا) ثمرتها أكلها، نافع ومكي وأبو عمرو، (ضِعْفَيْنِ) مِثْلَيْ ما كانت تثمر قبل بسبب الوابل على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها رضا الله تعالى زاكية عند الله زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده.

الهمزة في (أَيَوَدُّ) للإنكار و(جَنَّةٌ) بستان (مِّن نَّخِيلِ) لصاحب البستان (فِيهَا) أي الجنة (مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ) يريد بالثمرات المنافع التي كانت تحصل له فيها، أو أن النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر وجعل الجنة منهما – وأن كانت محتوية على سائر الأشجار –تغليبا لهما على غرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات (وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ) الواو للحال ومعناه أن تكون له

جنة وقد أصابه الكبر والواو في (وله ذرية ضعفاء) أولاد صغار للحال أيضاً، والجملة في موضع الحال من الهاء في (وَأَصَابَهُ) والإعصار ريح تستدير في الأرض، ثم تصعد نحو السماء كالعمود (فِيهِ نَارٌ) بالظرف إذ جرى وصفا لإعصار (فَٱحۡتَرَقَتۡ) الجنة وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة رياءً فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة جامعة للثمار، فبلغ الكبر وله أولاد ضعفاء، وجنة معاشهم، فهلكت بالصاعقة، بهذا البيان الذي بيَّن فيما قبل (يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ) في التوحيد والدين فتنبهوا.

نصيحة:

الناس في الإنفاق فريقان:

فريق تمتد يده بإنفاق المال في الظاهر وقلبه غير راضٍ بما تفعل يداه، فيظهر على لسانه الامتنان بالنعمة فيتطاول على من أنفق عليه ملحقا به الأذى في القول، هؤلاء تحبط أعمالهم لخلوها من الإخلاص يوم القيامة، وفريق ينفق ماله وقلبه مصدق بأن الله سيوافيه أجر الإنفاق كاملا يوم الجزاء، أضعافا مضاعفة، لأنه بنى عمله وقوله على مرضاة الله.

وبعد ضرب المثل للفريقين، ووضوح الصورة وقد رأيتها بعين البصيرة، وتمثلت الجنتين واحدة برُبْوة والأخرى أصابها الإعصار أو الصخر الأملس الذي أذهب المطر ما عليه من ترابتاركا إياه قاحلا، فلا تنفق المال ليقول الناس

عنك "رجلٌ جَوَادٌ كريمٌ" وقلبك خال من الإخلاص، أو تتبع ما أنفقت بالمنِّ والأذى فإنك تحبط عملك وتكن من الخاسرين، وعوِّدْ قلبك أن يحرس خطرات النفس ونزغات الشيطان حتى لا تدخل في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء﴾، وقد ذكر المفسرون أن أمر الشيطان بالفحشاء في هذه الآية معناه البخل، وكن سخيا في الإنفاق طيعة به نفسك، مخلصا به قلبك لكي تدخل في قوله تعالى: ﴿وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾البقرة الآية 268، وأعلم أن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم.

من سورة آل عمران

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِنَ الْمُمْتَرِينَ(60) ﴾سورة آل عمران.

سبب النزول:

لما قدم وفْد نصارى نجران: وجادلوا رسول الله ﷺفى أمر عيسى، قالوا للرسول ﷺ ما لك تشتم صاحبنا ؟قال: وما أقول ؟قالوا: تقول إنه عبد، قال: أجل انه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانا قط من غير أب ؟ فإن كنت صادقا فأرنا مثله فأنزل الله﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾الآية.

وروى أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام، قالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال: كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتخذ الله ولدا، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب، فقالوا: فمن أبوه إذا، فأنزل الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ.﴾إلى قوله..﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾فدعاهم النبىﷺ إلى المباهلة، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادى عليكم نارا !!فقالوا: أما تعرض علينا سوى هذا ؟ فقال: الإسلام أو الجزية أو الحرب، فأقروا بالجزية.

المعنى:

ان شأن عيسى اذ خلقه بلا أب – وهو في بابه غريب –كشأن آدم، خلق آدم من غير أب ولا أم، ثم قال له (كُنْ) فكان، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم!!، هذاهوالقول الحق في شأن عيسى فلاتكن من الشاكين.

يقول النسفي في تفسيره لهذه الآية:

أي أن شأن عيسى وحالته الغريبة كشأن آدم جسدا من طين وهي جملة مفسرة لحالة شبه عيسى بآدم ولا موضع لها أي خلق آدم من تراب، ولم يكن ثمة أب أو أم، فكذلك حال عيسى مع أن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه، (ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ) خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق (فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ) الشاكين يحتمل لأن يكون الخطاب للنبيءﷺ ويكون من باب التهييج لزيادة الثبات، لأنه عليه الصلاة والسلام معصوم من الامتراء.

نصيحة:

أنزل الله القرآن على قلب النبيءﷺ، ليبشر به المتقين، وينذر به المكذبين الضآلين، وقد جاء فيه من الأخبار عن الأمم السالفة وأنبيائهم، ومن الغيب كذلك، ليُعْلَم المؤمن من المكذب، وضرب الله فيه من الأمثال ليُقَرِّب الفهم ويقيم الحجة، وفي هذه الآية يبين الله لك لتؤمن بقدرته المطلقة، وترى بعين

بصيرتك أن الخالق لايعجزه شيء في الأرض ولا في السماء مصدقا بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا(44) ﴾سورة فاطر، وترد على من لديه شك بقوله: ﴿مَا كَانَ لله أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(35) ﴾سورة مريم، وإذا كان قول النسفي أن المقصود بقوله تعالى:﴿فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ﴾، في الإحتمال الأول هو السامع، فما عليك إلا أن تكون من المتيقنين بكل ما أخبر الله به في كتابه العزيز، ليصدق عليك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(3) ﴾سورة البقرة.

۞۞۞

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(117) ﴾سورة آل عمران.

المعنى:

مثل ما ينفقونه في الدنيا بقصد الثناء وحسن الذكر، كمثل ريح عاصفة فيها برد شديد، أصابت تلك الريح المدمرة زرع قوم، ظلموا أنفسهم بالمعاصى فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به ؟ فكذلك الكفار يمحق الله أعمالهم الصالحة، كما

يتلف الزرع بذنوب أصحابه، وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب.

اللغة:

- [صِرٌّ] الصِرُّ: البرد الشديد، قاله ابن عباس، وأصله من الصرير الذي هو الصوت، ويراد به الريح الشديدة الباردة.
- [حَرْثٌ] زرع وأصله من حرث الأرض اذا شقها للزرع والبذر.

البلاغة:

﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾فيه (التشبيه التمثيلى) شبه ما كانوا ينفقونه من أجل المفاخر وكسب الثناء، بالزرع الذي أصابته الريحالعاصفة الباردة، فدمرته وجعلته حطاما.

ذكر النسفي في كتابه مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) في المفاخر والمكارم وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس، أو ما يتقربون به إلى الله مع كفرهم، (كَمَثَلِ رِيحٍ) كمثل مهلك ريح وهو الحرث، أو مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح (فِيهَا صِرٌّ) برد شديد عن ابن عباس، رضي الله عنهما، وهو مبتدأ وخبر في موضع جر صفة لريح مثل (أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ) بالكفر (فَأَهْلَكَتْهُ) عقوبة على كفرهم (وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ) بإهلاك حرثهم (وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) بارتكاب ما استحقوا به

العقوبة، أو يكون الضمير للمنفقين أي وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها لائقة للقبول ونزل نهيا للمؤمنين عن مصافات المنافقين.[1]

أما الحكيم الترميذي فيرى أن هذا المثل ضرب في شأن الكفار الذين ينفقون أموالهم في أعمال الخير، شبههم بريح فيها برد شديد أذهبت الحرث، لأن قلوبهم خلت عن حرارة نور الإيمان فماتت وبردت، فذلك البرد أهلك أعمالهم الحسنة فلم يقبل منها شيء، لأنها صارت إلى الله بلا حرارة من نور التوحيد ونور الحياة بالإيمان.[2]

نصيحة:

قد تخرج الأعمال في الظاهر ليراها الناس، ومن تتابعها تأخذ صفة الإنفاق في الأموال، فإذا كان الباعث لها نفسيا ابتغاء الثناء والمدح، وكانت تصد عن سبيل الله أو تلحق الضرر بعباد الله المؤمنين، فاعلم أن بها برودة كبرد الريح الصَّرْصَر، صاحبها يهوي به في جهنم يسمع لها حسيساً كَحَسِيسِ الحيات ولا مفر، لأنها تكون يومئذ هي المستقر، وإذا كان الباعث ابتغاء الأجر عند الله، وإيصال النفع لعباد الله من أهل الإيمان فإن المنفق يعلم أين وضع حرثه فينال أضعاف ما زرع فكن الرجل الثاني تصح نيتك وحرك الجوارح لتظهر الأفعال

1) النسفي – مدارك التنزيل وحقائق التأويل – ص178

2) الحكيم الترميذي– الأمثال من الكتاب والسنة – ص7

وفق ما أمرك الله به، تكتب لك النجاة وتكن من الفائزين، الذين يذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ(102) ﴾سورة الأنبياء.

من سورة الأنعام

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(32) ﴾سورة الأنعام

المعنى:

أي باطلٌ وغُرور، لقصر مدتها وفناء لذتها والآخرة وما فيها من أنواع النعيم، خير لعباد الله المتقين من دار الفناء، لأنها دائمة لا يزول عنهم نعيمها، ولا يذهب عنهم سرورها، أفلا تعقلون أن الآخرة خير من الدنيا ؟

اللغة:

- [لَهْوٌ] اللهو: صرف النفس عن الجد إلى الهزل، وكل ما شغلك فقد ألهاك.

البلاغة:

- ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾فيه تشبيه بليغ، حيث جعلت الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة، كقول الخنساء: فإنما هي إقبال وإدبار.
- ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾الاستفهام للتوبيخ.

فائدة:

في القرآن العظيم خمس سور ابتدأت بـ﴿الحمد لله﴾وهي سورة الفاتحة﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾و سورة الأنعام ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾وسورة الكهف﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾وسورة سبأ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾وسورة فاطر ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾والغرض منها تعليم العباد حمد الله والثناء عليه.

هذه الآية جواب لقولهم: إن هي إلا حياتنا الدنيا، واللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع واللهو الميل من الجد أي الهزل وقيل: ما أهل الحياة الدنيا إلاَّ أهلُ لعب ولهو، وقيل: ما أعمال الحياة الدنيا إلا لعب ولهو لأنها لا تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة و(وَلَلدَّارُ) مبتدأ (ٱلْءَاخِرَةُ) صفتها ولدار الآخرة بالإضافة أي ولدار الساعة الآخرة؛ لأن الشيء لا يضاف إلى صفته، وخبر المبتدأ على القراءتين (خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ) وفيه دليل على أن ما سوى أعمال المتقين ليست لعب ولهو (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) بالتاء في قراءة المدني وحفص.[1]

1) النسفي – مدارك التنزيل وحقائق التأويل – ص 313

نصيحة:

جعل الله الحياة الدنيا دار عمل واجتهاد، والآخرة دار نيل للجزاء ثواباً كان أو عقاباً، والعبد في الدنيا إمّا كيس فطن يعمل لعاقبته أو متهاون كسول تغره الأماني ويحجزه التسويف عن العمل.

أمّا الزمن فهو الظرف الذي تظهر فيه الأعمال، مقسم إلى ماضي، وحاضر ومستقبل، ويتحرك في خط مستقيم نحو الأمام ليوم اللقاء، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ(6) ﴾سورة الإنشقاق، ويَمُرُّ فيه الإنسان في مراحل عمرية متغيرة تحكمه لا يستطيع الفكاك عنها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الله الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ(54) ﴾سورة الروم.

فإذا كانت الدنيا لعب ولهو، وانغمس الإنسان فيهما فكأنه ضيع أثمن ما وضع في يديه ألا وهي نفسه التي بين جنبيه، وإذا ملأ القلب تقوى الله وخشيته كان عمل الإنسان ظاهره اللعب واللهو وأجره عند الله في الآخرة، التي يسعى أن يكون فيها من الفائزين.

أنظر أي لعب ولهو تكتسبه يداك، واحسب الثواني والأيام والليالي في أي مظهر كان فيها عملك أمظهر أهل الدنيا أم أهل الآخرة ؟ ولا تنسَ قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ(57) ﴾سورة يوسف.

۞۞۞

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (49) قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ(50)﴾سورة الأنعام

المعنى:

أي وأما المكذبون بآيات الله فيمسهم العذاب الأليم، بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله، قال ابن عباس: يفسقون أى يكفرون، قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين يقترحون عليك تنزيل الآيات، وخوارق العادات: لست أدعى أن خزائن الله مفوضة إلي حتى تقترحوا علي تنزيل الآيات، ولا أدعي أيضا أني أعلم الغيب حتى تسألوني عن وقت نزول العذاب ولست أدعي أني من الملائكة، حتى تكلفوني الصعود إلى السماء، وعدم المشي في الأسواق، وعدم الأكل والشرب، قال الصاوي: وهذه الآية نزلت حين قالوا له: إن كنت رسولا فأطلب من ربك أن يوسع علينا، ويغني فقرنا وأخبرنا بمصالحنا ومضارنا ! ! فأخبرهم أن ذلك بيد الله سبحانه لا بيده. والمعنى: أني لا أدعي شيئا من هذه الأشياء الثلاثة، حتى تجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك، دليلا على عدم صحة رسالتي، ما أتبع فيما أدعوكم إليه إلا وحي الله الذي يوحيه إليَّ، هل يتساوى الكافر والمؤمن والضال والمهتدي ؟ أتسمعون فلا تتفكرون ؟

البلاغة:

﴿ٱلۡأَعۡـمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ استعارة عن الكافر والمؤمن، وهي من بديع الاستعارات.[1]

يذكر النسفي في كتابه – مدارك التنزيل وحقائق التأويل – في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾جعل العذاب ماسا لهم كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى بالكفر، ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾أي قسمه بين الخلق ورزقهم ومحل قوله تعالى : ﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾النصب عطفا على محل عندي خزائن الله، لأنه جملة العقول، كأنه قال: لا اقول لكم هذا القول ولا هذا القول، ولا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله وعلم الغيب ودعوى المَلَكِية، وأنها أدعي ما كان لكثير من البشر وهو النبوة، وما أخبركم إلا بما أنزل الله عليَّ، ومثل الضال والمهتدي أو لمن اتبع ما يوحى إليه ومن لم يتبع أو لمن يدعي الصراط المستقيم وهو النبوة والمحال وهو الإلهية، فلا تكونوا ضالين أشباه العميان، أو فتعلموا أني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر، أو فتعلموا أن اتباع ما يوحى إلي مما لا بد لي منه.[2]

1) صفوة التفاسير – الصابوني، ج1

2) مدارك التنزيل وحقائق التأويل – للنسفي، ص 316

نصيحة:

الهداية رؤية العبد الطريق المستوي بنور البصيرة وإتباعه بتوفيق من الله وعنايته، ولا تكون إلا بواسطة الرسول - النَّبي المبعوث من رب العالمين، مؤيدا بالآيات البينات والحجج الدامغة ليصدقه الناس الذين بعث إليهم.

الخروج عن الطريق المستقيم يسمى صاحبه فاسقاً، وعدم تصديق الرسول-النبي يسمى صاحبه مكذباً يؤدي به الأمر إلى الضلال.

التَّقَوُّلُ أو التَّفَوُّهُ على لسان الرسول-النبي بما لم يقل أو يدعو إليه أو يدعي، يلقي صاحبه في مقعده من النار.

المثال واضح كنور الشمس حين تشرق من مطلعها، فالأعمى لا يعرف اسمها ولا يرى نورها ولا يهتدي إلى الطريق إلا إذا جاء من يقوده ويأخذ بيده، أما البصير الذي احتد بصره وقوي نظره واستنار عقله واستضاء لبه وفهم عن ربه وألقى سمعه وشهد سره، فقد وصل إلى الكمال باتباع الرسول-النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

افتح البصيرة ليدخلها النور، واعلم أنه قد جاءك من ربك مَنْ يقودك ويهديك وينجيك فأكثر الصلاة عليه والسلام، متبعاً غير مبتدعاً تدخل الجنة بسلام، وتذكر قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(88) ﴾سورة الأنعام، وادخل في زمرة الذين قيل فيهم دعاء ملائكته: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(7) ﴾سورة غافر، فحقق التوبة والإتباع تحصل على الوقاية ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(16) ﴾سورة الأنعام.وتدخل في السلامة، ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(89) ﴾سورة التوبة، وتتأكد بعد ذلك: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(60) ﴾سورة الصافات.

۞۞۞

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(122) ﴾سورة الأنعام

المعنى:

قال أبو حيان: لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين، مثل تعالى بأن شبه المؤمن بالحي الذي له نور يتصرف به كيفما سلك، والكافر بالمتخبط في الظلمات المستقر فيها، ليظهر الفرق بين الفريقين ، والمعنى: أو من كان بمنزلة الميت، أعمى القلب بالكفر فأحيا الله قلبه بالإيمان، وأنقذه من الضلالة بالقرآن، وجعلنا له مع تلك الهداية النور العظيم الوضاء، الذي يتأمل به الأشياء، فيميز به بين الحق والباطل، كمن هو يتخبط في ظلمات الكفر والضلالة، لا يعرف المنقذ ولا المخلص ؟ قال البيضاوي: وهو مثل لمن بقي في الضلالة لا يفارقها بحال، وكما بقي هذا في

الظلمات يتخبط فيها، كذلك حَسَّنَا للكافرين وزَيَّنَا لهم، ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي.[1]

سبب النزول:

عن ابن عباس أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرث - وحمزة لم يؤمن بعد - فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل، وهو راجع من قنصه وبيده قوس، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس، فقال أبو جهل: أما ترى ما جاء به ؟ سفه عقولنا، وسب آلهتنا، وخالف أباءنا! ! قال حمزة: ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله، أشهد أن لا آله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فأنزل الله ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ الآية.

البلاغة:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾الموت والحياة، والنور والظلمة، من باب الاستعارة، فقد استعار الموت للكفر، والحياة للإيمان، وكذلك النور والظلمات للهدى والضلال.

ذكر النسفي في - مدارك التنزيل ومدارك التأويل- من كان كافرا فهديناه لأن الإيمان حياة القلوب﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا ﴾مستضيئا به: اليقين﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ ﴾أي صفته﴿ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾خابط فيها، ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾لا يفارقها ولا يتخلص منها،

1) صفوة التفاسير – الصابوني، ج1.

وهو حال من قال: المراد بهما حمزة بن عبد المطلب وأبو جهل والأصح أن الآية عامة لكل من هداه الله ولكل من أضله الله فبين أن مثل المهتدي مثل الميت الذي أحيي وجعل مستضيئا يمشي في الناس بنور الحكمة والإيمان ومثل الكافر مثل من هو في الظلمات التي لا يتخلص منها، (كذلك) أي: كما زَيَّنَ للمؤمن إيمانه (زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ) بتزيين الله تعالى كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾[1]، ﴿ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾أي أعمالهم.

نصيحة:

النور حين بزوغه تشرق له كل ما في السموات والأرض وتفرح لبزوغه كل الكائنات فتستقبله بانشراح أرواحها، ونشاط أجسامها، واتساع في أرزاقها، لأن مصدره رحمة الله التي وسعت كل شيء، فذاك هو ما وصلك منه عن طريق رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام، في صورة هدي سماه الروح، بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(52) ﴾سورة الشورى.

فمن قرأ واستمع ففهم ووعى، واتبع تجليات نوره، وآياته البينات، استنار به ومشى بين الناس بنوره، فكان بينهم منارة كما كان الهادي إلى صراطه المستقيم دالا وهاديا، فالْتَمَسَ بإتباعه الطريق الموصلة إليه ولا تكن الرجل الثاني الذي

1) سورة النمل – الآية (4)

أظلم قلبه وظلم نفسه، وأدخل في النيات والأعمال غيره، فزُيِّنَ له العمل فضلَّ وأضلَّ.

من سورة الأعراف

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ(58) ﴾سورة الأعراف

المعنى:

الأرض الكريمة التربة، يخرج النبات فيها وافيا حسنا، غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره، وهذا مثل للمؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها، والأرض إذا كانت خبيثة التربة، كالحَرَّةِ أو السَّبْخَةِ ((الحَرَّةُ: الأرض ذات الحجارة السود، والسَّبْخة: الأرض ذات الملح)) لا يخرج النبات فيها إلا بعسر ومشقة، ويكون قليلا لا خير فيه، وهذا مثل للكافر الذي لا ينتفع بالموعظة، قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالمؤمن طيب وعمله طيب، كالأرض الطيبة ثمرها طيب، والكافر خبيث، وعمله خبيث، كالأرض السبخة المالحة لا ينتفع بها، كما ضربنا هذا المثل، كذلك نبين وجوه الحجج ونكررها، آية بعد آية، وحجة بعد حجة، لقوم يشكرون الله على نعمه، وإنما خص الشاكرين بالذكر، لأنهم المنتفعون بسماع القرآن، قال الألوسي: أى مثل هذا التصريف البديع، نردد الآيات الدالة على

القدرة الباهرة، ونكررها لقوم يشكرون نعم الله تعالى، وشكرها بالتفكير والاعتبار بها.

اللغة:

- [نكِداً] النكد: العسر القليل.

في كتاب مدارك التنزيل وحقائق التأويل، يذكر النسفي أن ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ ﴾هي الأرض الطيبة الترب﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾بتيسيره، وهو موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسنا وافيا؛ لأنه واقع مقابلة نكدا ﴿ وَٱلَّذِى خَبُثَ ﴾صفة للبلد أي البلد الخبيث ﴿ لَا يَخْرُجُ ﴾أي نباته فحذف للإكتفاء﴿ إِلَّا نَكِدًا ﴾هو الذي لا خير فيه، وهذا مثل لمن ينجح فيه الوعظ، وهو المؤمن، ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك، وهو الكافر، وهذا التمثيل واقع على إثر ذكر مثل المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الإستتطراد (كَذَٰلِكَ) مثل ذلك التصريف ﴿ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ ﴾نرددها ونكررها ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾نعمة الله، وهم المؤمنين ليتفكروا فيها ويعتبروا بها.

نصيحة:

الأرض الطيبة لها خصائص، من أهمها قابليتها للإنبات بما تحويه من خصوبة وعوامل النمو التي تفيد النبات في نموه لكي يعطي ثماره اليانعة، فحينما تسقى بماء السماء، يذيب هذه العناصر لكي تكون قابلة للامتصاص والاستغلال، وبالتالي يستفيد منها أكبر فائدة.هذه سنة الله التي أودعها في الماء

وهي إحياء الموات وسنة الله التي أوعدها في النبات وهي النمو والإثمار، أما العكس فهو الخروج عن السنن الكونية.

فالنفوس جُبِلَتْ على محبة الحق وكراهيتها للباطل، فإذا سمعت ما يقربها للحق ويدعوها إليه أصغت بآذان قلبها وفهمت ما يقال لها فاتبعته ليثمر سلوكا مقبولا لديها ولدى غيرها، فأطلق عليها نفس طيبة، واستفادت من طيبتها وكان جزاؤها الحياة الطيبة واسمع لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(97) ﴾سورة النحل أو قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(12) ﴾سورة الصف

حياة القلب بالموعظة الحسنة، وثمرتها الفهم والاعتبار، ونتيجتها سلوك حسن يعكس نور الإيمان فيكون صاحبه قدوة حسنةلغيره من الناس تماما كالثمرة الطيبة لها حلاوة في الطَّعْم ولها نضارة في المظهر متمثلاقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء(24) ﴾سورة إبراهيم.

فإذا أردت أن تزكوَ ثمرة إيمانك فافهمْ المواعظ، واستقمْ في السلوك، وغيِّر من نفسك أولا حتى تذوق طعم ما يغير الله بك، ولا تكن كالأعمى والأصم الذي يدعي أنه يرى ويسمع وهو عكس ذلك، وحقق قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ

مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ(11) ﴾سورة الرعد.

۞۞۞

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ(177)﴾سورة الأعراف.

المعنى:

واتْلُ يا محمد على اليهود خبر وقصة ذلك العالم، الذي علمناه علم بعض كتب الله، فانسلخ من الآيات كما تنسلخ الحية من جلدها، بأن كفر بها وأعرض عنها أى فلحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله في زمرة الضالين الراسخين في الغواية، بعد أن كان من المهتدين، قال ابن عباس: هو "بَلْعَم بن باعُورَاء" كان عنده اسم الله الأعظم وقال ابن مسعود: هو رجل من بنى إسرائيل بعثه موسى إلى ملك "مَدْيَن" داعيا إلى الله فرشاه الملك، وأعطاه الملك على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه، ففعل وأضلَّ الناس بذلك، ولو شئنا لرفعناه إلى منزل العلماء الأبرار، ولكنه مال إلى الدنيا وسكن اليها، واثر لذاتها وشهواتها

على الآخرة، واتبع ما تهواه نفسه فانحط أسفل سافلين؛ فمثله في الخِسَّة والدناءة كمثل الكلب ان طردته وزجرته فسعى لَهَثَ، وإن تركته على حاله لَهِثَ، وهو تمثيل بادي الروعة ظاهر البلاغة، هذا المثل السيىء، هو مثل لكل من كذب بآيات الله، وفيه تعريض باليهود فقد أوتوا التوراة وعرفوا صفة النبي عليه الصلاة والسلام، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا عن حكم التوراة.[1]

اللغة:

- [انْسَلَخَ] الإنسلاخ: الخروج يقال لكل من فارق شيئا بالكلية انسلخ منهوانسلخت الحية من جلدها أي خرجت منه.
- [أَخْلَدَ] مال إلى الشيء وركن إليه وأصله اللزوم، ومنه الخلود في الجنة.
- [يَلْهَثْ] قال الجوهري: لهث الكلب يلهث إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش.

يقول النسفي في - مدارك التنزيل وحقائق التأويل - الكلب إن تزجره وتطرده ﴿ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ غير مطرود ﴿يَلْهَث﴾ والمعنى: فَصِفَتُهُ التي هي مَثَلٌ في الخسَّة و الضِّعة كصفة الكلب في أخسِّ أحواله وأذلها، وهي حال دوام اللهث به سواء حُمِلَ عليه أي شُدَّ عليه وهُيِّجَ فطُرِدَ، أو تُرِك غير متعرض له بالحمل عليه وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا حُرِّكَ، أما الكلب فيلهث في الحالين، فكان مقتضى الكلام، أن يقال: ولكن أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا

1) صفوة التفلسير – الصابوني، ج1

منزلته فوضع هذا التمثيل موضع أبلغ حَطٍّ، ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال، كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلا دائم الذلة لاهثاً في الحالين، وقيل معناه: هو ضَلَّ وُعِظ أو تُرِك وعن عطاء: من علِم ولم يعمل فهو كالكلب ينبح إن طرد أو تُرِك.[1]

أما في كتاب – الأمثال من الكتاب والسنة – للحكيم الترميذي، فيقص ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض، وسوس العدو (الشيطان) إلى السباع، أن هذا عدو لكم فاقتلوه.

جاءت الوحوش فاستوحشته واجتمعوا عليه، فجاء العدو (الشيطان) فأشلى الكلب حتى ينبح فأول من حمل عليه، الكلب، فتخوف آدم عليه السلام، فنودي: أن يا آدم لا تخف، فأعطي العصا الذي لموسى عليه السلام فضربه بذلك، فذَلَّهُ وهزمه ثم أمر بأن يمسح يده على رأسه فألف به وبولده بعد التذلل ثم أشلاه على السباع فحمل عليها معاديا لها إلى يوم القيامة وصار يحرسهم ويصطاد لهم إلى يوم القيامة (لبني آدم)، فلما وصل إليه سلطان العصا الذي جُعِل فيها صار الكلب ميت الفؤاد، فبقي فيه اللهث إلى يوم القيامة، حملت عليه أو لم تحمل، فلم تزل تلك العصا في حفظ الله تتداولها الأيدي إلى وقت موسى عليه السلام، ويقال كانت العصا من آس الجنة، فذلك الذي آتاه الله من الكرامة ما لو أراد أن يصرفها الآخرة لحصل له ذلك لقوله تعالى: ولو شئنا لرفعناه بها، أي لو صرفها إلى الآخرة، آتيناه ذلك ولكنه أخلد إلى

1) مدارك التنزيل وحقائق التأويل – النسفي نص 285، 286

الأرض أي صرفها في وجوه الدنيا التي هي للفناء وركب الهوى وقصد إلى كليمنا (موسى عليه السلام) كما قصد الكلب إلى صفينا (آدم عليه السلام) فصار مثله مَثَل الكلب فمعنى قوله تعالى: كمثل الكلب، أي إن هذا صار كلبا وهو بَلْعَم بن باعوراء، إن رأى آياتنا وعبرنا لم يتعظ وإن لم ير لم يتعظ لأنه اسلخ مما آتيناه.[1]

نصيحة:

الكلب حيوان كلنا يعرفه، صورة وصوتا حين سماع نباحه، ومنظر لهثه في البراري، وقد ضرب الله به المثل ليقرب لنا الصورة، ويبين لنا فيها العبرة لمن أراد أن يعتبر.

هذا عبد من عباده آتاه الله الآيات لكي تكون له هدى فيتبع النور الذي أنزله الله معها، ولكنه آثر الحياة الدنيا عن الآخرة، فانسلخ منها كما تنسلخ الحية من جلدها، والإنسلاخ دليل نزع ربقة الشرع الذي ارتضاه الله لعباده ودلهم عليه بواسطة الرسل، فكل من يسمع آيات الله تتلى عليه ولا يتعض ولا يمتثل فهو منسلخ عنها، واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ الله تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(8) ﴾سورة الجاثية.

فإذا أكرمك الله بالخطاب، وأجَّلَكَ ليوم الحساب، فلا تكن أصم، أعمى، أبكم، لاعقل له ولا لب، واجتهد أن تفهم عنه ما أنزل من الوحي وأن تعمل بما أمرك به وأن تنتهي عما نهاك عنه، ففيه نجاتك يوم الحساب.

1) الأمثال في الكتاب والسنة – الحكيم الترميذي – ص 7، 8

واجعل قدوتك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ(73) ﴾سورة الأنبياء، ولا تكن من الذين قال الله فيهم: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(46) ﴾سورة النساء.

كرامتك في إيمانك اليقيني، واتباعك لنَبيِّك المصطفى، فلا تجعل كرامتك تَنْحَطُّ و أعمالك تُحْبَطُ، وحياتك في الدنيا والآخرة مآلها الخسران المبين.

من سورة يونس

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (24) ﴾سورة يونس

المعنى:

صفة الحياة الدنيا، وحالها العجيبة في فنائها وزوالها، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها، كمثل مطر نزل من السماء فنبت به انواع من النبات، مختلط بعضها ببعض، قال ابن عباس: اختلط فنبت بالماء كل لون مما يأكله الناس من الحبوب

والثمار والبقول، والانعام من الكلأ والتبن والشعير حتى إذا اخذت حسنها وبهجتها وتزينت بالحبوب والثمار والازهار، وهو تمثيل لها بالعروس اذا تزينت بالحلي والثياب، وظن أصحابها أنهم متمكنون من الإنتفاع بها، محصلون لثمرتها وغلتها، جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات، اما ليلا واما نهارا فجعلناها محصودة مقطوعة لا شيء فيها، كالذي حصد بالمناجل أى كأنها لم تكن عامرة قائمة على ظهر الارضقبل ذلك، كذلك نفصل الآيات أى مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا، نبين الآيات ونضرب الامثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الامثال، قال الألوسي: وتخصيصهم بالذكر لانهم المنتفعون بالمواعظ.[1]

اللغة:

- [زُخۡرُفَهَا] الزخرف: كمال حسن الشيء ونضارته، سمي زخرفا لبهجته ونضارته
- [تَغۡنَ] غني بالمكان اذا اقام به وعمره.

البلاغة:

1- ﴿ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا ﴾هذا من (بديع الاستعارة) شبه الارض حينما تتزين بالنبات والازهار، بالعروس التي تتزين بالحلي والثياب، واستعير لتلك البهجة والنضارة لفظ الزخرف.

1) صفوة التفاسير –علي الصابوني – ج2

2- ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا ﴾الامر ههنا كناية عن العذاب والدمار.

نصيحة:

هذا المثل يبين للإنسان حقيقة الحياة الدنيا ومتاعها ويبين له بصورة واضحة للعيان أن الحياة الدنيا دار فانية يجب التزود فيها بالأعمال الصالحات للحياة الباقية.

الماء مصدر الحياة، والنبات مصدر للغذاء وباختلاطهما في التربة تخرج الزروع والثمار من كل الألوان والأشكال، والكل مسخر للإنسان مشترك بينه وبين الحيوان، فإذا اغتر بتنوع الغذاء وكثرة الماء ونقاوة الهواء، وظنَّ أن قوة عقله مكنته من السيطرة على خزائن الأرض، فهذا نوع من الخيال، لأن الحقيقة غير ذلك، واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ(21) ﴾سورة الحجر، أو قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ(37) ﴾سورة الطور، وقد مثل لها في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا(45) ﴾سورة الكهف، فما يراه المرء من زخارفها ومتاعها ما هو إلا قليل مهما ظهر له من الكثرة أو من أسباب القوة.

وما ضرب هذا المثل إلا ليأخذ الإنسان حِذْره والحيطة لأن أمر الله إذا جاء لا يؤخر وأقرأ قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ

بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(20)﴾سورة الحديد

فإذا جاءك من خبرها ووعضك خالقك وخالقها مبينا لك أحوالها المتقلبة كتقلب الليل والنهار، ومآلها إلى زوال، فكيف يكون ركونك إليها دَيْدَنُكَ، وجريُك وارء حطامها هو ما يهمك، فقد جاءت الأحاديث النبوية والآثار الحكيمة لتحذرك منها وتحذرني، فإذا كنت من الأيقاظ فكن من أهلها العباد، وإذا كنت أعقل الناس فكن فيها من الزهاد، وقد أحسن القائل في وصفها حيث قال:

أنظر إلى الأطلال[1] كيف تغيرت	من بعد ساكنها وكيف تنكرت
سحب البلى أذياله برسومها	فتساقطت أحجارها و تكسرت
ومضت جماعة أهلها لسبيلهم	وتغيبت أخبارهم وتنكرت
لما نظرت تفكرا لديارهم	سحَّت[2] جفوني عبرة وتحدرت
لو كنت أعقل ما أفقت من البكا	حسبي هناك ومقلتي ما أبصرت
نصبت لنا الدنيا زخارف حسنها	مكرا بنا خديعة ما فتَّرت

1) الأطلال: ما بقي من الديار

2) سحّت العين: جادت بالدمع وصبته كثيرا

هي التي لم تَهْنَ قط لذائق ... إلا تغير طعمها وتمررت

خدَّاعة بجمالها إن أقبلت ... فجَّاعة بزوالها إن أدبرت

وهَّابة سلاَّبة لِهباتها ... طلاَّبة لخراب ما قد عمرت

وإذا بَنَتْ أمراً لصاحب ثروةً ... نصبت مجانقها عليه فدمرت

وقال آخر:

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره ... فسوف لعمري عن قليل يلومها

أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإذا أقبلت كانت كثيرا همومها

فتأمل أيها الأخ الكريم ولا تغتر بزخارف الدنيا، يكتب لك السلامة في عرضك ودينك، وترجع إلى مولاك بقلب سليم.

من سورة هود

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ(24) ﴾سورة هود.

المعنى:

أي جمعوا مع الإيمان والعمل الصالح الإخباتَ: وهو الاطمئنان إليه سبحانه والخشوع له، والانقطاع لعبادته، أولئك المنعمون في الجنة، لا

يخرجون منها أبدا، (مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ)، فريق المؤمنين وفريق الكافرين، شبَّه تعالى فريق الكافرين (كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ) وفريق المؤمنين بـ (وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ) وهو من باب اللَّف والطِّباق، والمعنى: حال الفريقين العجيب، كحال من جمع بين العمى والصمَم، ومن جمع بين السمع والبصر (هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ)، الاستفهام إِنكاري أي لا يستون مثلا، فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضيائه كحال من يخبط في ظلمات الضلالة، ولا يهتدي إِلى سبيل السعادة، أفلا تعتبرون وتتعظون؟ والغرض التفريق بين أهل الطاعة والإِيمان، وأهل الجحود والعصيان.

اللغة:

- [الخَبْتُ]: هو البراح القفر المستوي من الأرض؛ فكأن المخبت في القفر قد انكشف واستسلم وبقي ذا منعة، فشبه المتذلل الخاشع بذلك، وقيل اشتق من استوائه وطمأنينته.[1]

البلاغة:

[كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ] فيه تشبيه "مرسل مجمل" لوجود أداة التشبيه وحذف وجه الشبه أي يمثل الفريق الكافر كالأعمى والأصم في عدم إبصار الحق وسماعه ومثل الفريق المؤمن كالسميع والبصير في الرؤية والسماع.

1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز– ابن عطية، ص 161

وقد أفاد ابن عطية في كتابه الوجيز، أن هذا تمثيل بمثالين فقد شبه الكافر بـ (الأعمى والأصم)، وشبه المؤمنبـ (البصير والسميع) وقال بعض المتأولين: التقدير كالأعمى الأصم والبصير السميع، ودخلت واو العطف كما تقول: جاءني زيد العاقل والكريم، وأنت تريده بعينه؛ فهو على هذا تمثيل بمثال واحد.[1]

نصيحة:

أكرم الله الإنسان بالحواس الخمس لكي يتعرف على محيطه وما يصله منه من تنبيهات، ومن حكمة الله أن جعل التحكم فيها للعقل الذي يحلل ويترجم ويرتب ويستنتج ويركب هذه المعلومات، حتى لا يضل أو يتيه في عالم مليئ بالمحسوسات في صورة نعم أنعمها عليه خالقه. واسمع قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ(34) ﴾سورة إبراهيم.

هناك نعمة من نوع آخر قد يغفل الإنسان عنها ولا يلقي لها بالا، ألا وهي نعمةالإسلام.

الإنسان أمام هذه النعمة أحد اثنين، إمّا مؤمن وإمّا كافر، واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(2) ﴾سورة التغابن، والإيمان مقترن دائما بالعمل الصالح، أوله التصديق اليقيني بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، من أخبار الغيب، وثانيه العمل

1) نفس المصدر السابق – ص 162

بالشريعة الغراء وثالثه التدرج في مراتب الإحسان للوصول إلى المعاينة، واسمع قول رسول الله مجيبا عن سؤال جبريل في الحديث المشهور الذي رواه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه.

وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا). قال: صدقتَ، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان ؟ قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره). قال: صدقت. قال فأخبرني عن الإحسان ؟ قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). قال: فأخبرني عن الساعة ؟ قال: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل). قال: فأخبرني عن أمارتها ؟ قال: (أن تلد الأمة ربَّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاءَ الشاء يتطاولون في البنيان). قال: ثم انطلق، فلبثتُ مليًّا، ثم قال لي: (يا عمر، أتدري من السائل ؟). قلت: الله ورسوله أعلم.قال: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

قد ضرب الله لك في هذا المثل حال الفريقين، بالأعمى والأصم والبصير والسميع، فكن صاحب بصيرة مفتوحة تتلقى نور خالقك وتبصر آياته في نفسك

والآفاق، وسمعٍ مفتوح على أذنْنات قلبك تستقر فيه الكلمات فيعي ما يقال له في الكتاب المقروء والمشاهد، لكي تتحقق بالإخبات إلى ربك فيدخلك جنته وتكتب من الفائزين، وإياك أن تكن الرجل الثاني فتهلك ويومها تقول: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(100) ﴾سورة المؤمنون.

من سورة الرعد

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ (14) وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (15) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لله شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ (17) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ

الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18)أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ(19) ﴾سورة الرعد.

المعنى:

أي لله تعالى تتجه الدعوة الحق، فهو الحقيق بأن يعبد وحده بالدعاء والالتجاءوالآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون اللهلا يستجيبون لهم دعاء ولا يسمعون لهم نداء، إلا كمن يبسط كفيه للماء من بعيد، يدعوه ويناديه ليصل الماء إلى فمه، والماء جماد لا يحس ولا يسمع، قال أبو السعود: شبه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلا، بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء، يبغي وصوله إلى فمه، وليس الماء ببالغ فمه ابدا، لكونه جمادا، لا يشعر بعطشه، وما دعاؤهم والتجاؤهم لآلهتهم، إلا في ضياع وخسار لأنه لا يجدي ولا يفيد، ولله وحده يخضع وينقاد أهل السموات وأهل الأرض، (طَوْعًا وَكَرْهًا) اي طائعين وكارهين، قال الحسن: المؤمن يسجد طوعا، والكافر يسجد كرها اي في حالة الفزع والاضطرار، وتسجد ظلالهم أيضا لله في أول النهار وأواخره، والغرض الإخبار عن عظمة الله تعالى وسلطانهالذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات، حتى ظلال الآدميين، والكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى، قل يا محمد لهولاء المشركين: مَن خالق السموات والأرض ومدبر امرهما؟ والسؤاللتهكم والسخرية لما عبدوا من دون الله، قل لهم تقريعا وتبكيتا: الله

خالقها، قل لهم – إلزاما لإقامة الحجة عليهم – أجعلتم لله شركاء؟وعبدتموهم من دونه، وهم لا يقدرون على نفع أنفسهم، ولا على دفع الضر عنها ؟ فكيف يستطيعونه لغيرهم؟ (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ) هذا تمثيل لضلالهم في عبادة غير الله، والمراد بالأعمى: الكافر، وبالبصير: المؤمن، وبالظلمات: الضلال، وبالنور: الهدى، والمعنى: كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا تستوي الظلمات والنور، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق، والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء، فالفارق بين الحق والباطلواضح، وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر، ظهور الفارق بين النوروالظلام،(أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) هذا من تمام الاحتجاج عليهم، والتهكم بهم، أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً، خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله، فالْتَبسَ الأمر عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلقِ آلهتهم؟ وهو تهكم لاذع، فانهم يرون كل شيء من خلق الله، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئاً، ثم بعد هذا كله يعبدونها من دون الله، وذلك أسخف واحط ماتصل إليه عقول المشركين ! ! ولما اقام الحجة عليهم جاء بهذا البيان الواضح (قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ) أي الله الخالق لجميع الأشياء، لا خالق غيره، وهو المنفرد بالألوهية والربوبية، الغالب لكل شيء، وجميع الأشياء تحت قدرته وقهره.

أنزل تعالى من السماء مطراً فجرت مياه الأودية بمقدار سعتها، كل بحَسَبه، فالكبير بمقدار كبره، والصغير بمقدارصغره، حمل السيل الذي حدث من الأمطار، زبدا عاليا فوقه، وهو ما يحمله السيل من غثاء، ورغوة تظهر على وجه

الماء، قال الطبري: هذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان والكفر، فمثل الحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، مثل الماء الذي أنزله الله من السماء إلى الأرض، فاحتمل السيل زبدا عاليا، فالحق هو الماء الباقي الذي يمكث في الأرض، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل، وهذا أحد مثلي الحق والباطل، والمثل الآخر قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ أي ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن، كالذهب والفضة والنحاس، مما يسبك في النار طلب الزينة، او الأشياء التي ينتفع بها كألاواني، زبد مثل زبد السيل، لا ينتفع به كما لا ينتفع بزَبَد السَّيل، كذلك يضرب الله المَثَل للحق والمثَل للباطل، فمثل الحق في ثباته واستقراره، كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض فينتفع منه الناس، ومثل الباطل في زواله واضمحلاله، كمثل الزبد والغثاء الذي يقذف به الماء يتلاشى ويضمحل، فأما الزبد الذي لا خير فيه، مما يطفو على وجه الماء والمعادن، فانه يرمي به السيل ويقذفه، ويتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي وأما ما ينتفع الناس به من الماء الصافي، والمعدن الخالص، فيبقى ويثبت في الأرض، مثل هذين المثَلين السابقين، يبين الله الأمثال للحق والباطل، والهدى والضلال، ليعتبر الناس ويتعظوا ((يقول الشهيد "سيد قطب" في تفسيره الظلال ما نصه: "ثم نمضى مع السياق يضرب مثلا للحق والباطل، للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح، إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلم في طريقه غثاء يطفو على وجهه فيصورة الزبد، وهو نافش رابٍ منتفخ، ولكنه بعد غثاء، والماء من تحته سارب ساكن هادىء، ولكنه هو الماء الذي يحمل

الخير والحياة، كذلك يقع في المعادن التي تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة أو آنية كالحديد والرصاص، فان الخبث يطفو ولكنه بعْد خَبَثٍ يذهب، ويبقى المعدن في نقاء، ذلك مثل الحق والباطل، فالباطل يطفو ويعلو ويبدو رابيا منتفخا ولا يلبث أن يذهب جُفاء مطروحا لا حقيقة له ولا تماسك، والحق يظل هادئا ساكنا ولكنه الباقي في الأرض كالماء الْمحيى، والمعدن الصريح"))، للمؤمنين الذين استجابوا لله بالإيمان والطاعة، المثوبة الحسنى، وهي (الجَنَّة) دار النعيم، (وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ) أي لم يجيبوا ربهم إلى الإيمان به، وهم الكافرون، لو كان لهم جميع ما في الدنيا من الأموال ومثل جميع ما في الدنيا من كنوزلبذلوا كل ذلك فداء لأنفسهم، ليتخلصوا من عذاب الله ،لهم الحساب السيىء، قال الحسن: يحاسبون بذنوبهم كلها، لا يغفر لهم منها شيءوالمكان الذي يأوون اليه يوم القيامة نار جهنم، بئس هذا المستقر والفراش الممهد لهم في النار، (أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ) الهمزة للاستفهام الإنكاري أي هل يستوي من أمن وصدق بما نزل عليك يا أيها الرسول، ومن بقي يتخبط في ظلمات الجهل والضلال ؟ لا لب له كالأعمى ؟ والمراد به عمى البصيرة، قال ابن عباس: نزلت في حمزة، وأبي جهل، إنما يتعظ بآيات آلله ويعتبر بها ذَوُو العقول السليمة. [1]

اللغة:

- [زَبَدٗا] الزبد: الغثاء الذي يحمله السيل

1) صفوة التفاسير – علي الصابوني، ج2

- [رَّابِيًا] عاليا منتفخا
- [جُفَآءً] مضمحلا متلاشيا، لا منفعة فيه ولا بقاء له يقال: جفا الماء بالزبد إذا قذفه ورمى به
- [ٱلۡمِهَادُ] الفراش وأصله المكان الممهد الموطأ للنوم والراحة

البلاغة:

1- التشبيه التمثيلي في﴿ كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ ﴾شبه عدم استجابة الأصنام للداعين بعدم استجابة الماء لباسط كفيه إليه من بعد، فوجهالشبه منتزع من متعدد، ولهذا يسمى (التشبيه التمثيلي).

2- الاستعارة في﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ استعار لفظ (الظلمات والنور) للكفر والإيمان وكذلك لفظ (الأعمى) للمشرك الجاهل و(البصير) للمؤمن العاقل.

3- ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ...﴾ الآية شبه تعالى الحق والباطل بتشبيه رائع يسمى (التشبيه التمثيلي) لأن وجه الشبه فيه منتزع من متعدد، فمثل الحق بالماء الصافي، الذي يستقر في الأرض، والجوهر الصافي من المعادن الذي به ينتفع العباد، ومثل الباطل بالزبد والرغوة التي تظهر على وجه الماء، والخبث من الجوهر الذي لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل، والصورة التيتوحي بها الآية، صورة (الحق) و(الباطل) وهما في صراع كالزبد الذي

تتقاذفه الأمواج﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وهو تمثيل في منتهى الروعة والجمال.

4- ﴿ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ مجاز عقلي من إسناد الشيء لمكانه، والأصل فسالت مياه الأودية.

5- ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أمثال الحق، وأمثال الباطل.

6- ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ ﴾ بينهما طباق السلب.

7- ﴿ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ شبه الجهل والكفر بالعمى على سبيل (الاستعارة التبعية) لأن المراد بالأعمى الجاهل الكافر.

في المثال السابق، يضرب الله مثلا للحق وأهله والباطل وحزبه، فمثل الحق وأهله بالماءينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع وبالمعادن الذائبة في صوغ الحلى منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفات، وذلك ماكث في الأرض باق ظاهرا يثبت الماء في منافعه، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله بزبد السيل الذي يرمى به وبزبد المعدن الذي يطفو فوقه إذا أذيب.

قال الجمهور: وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب، والحق والباطل، فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للأبدان والأودية للقلوب ومعنى بقدرها، بقدر سعة القلب وضيقه والزبد هواجس النفس ووساوس الشيطان والماء

الصافي المنتفع به مثل الحق فكما يذهب باطلا ويبقى صفو الماء، كذلك هواجس النفس ووساوس الشيطان ويبقى الحق كما هو، وأما حلية الذهب والفضة فمثل للأحوال السنية والأخلاق الزكية، وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للأعمال الممدة بالإخلاص المعدة للخلاص، فإن الأعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب، كما أن الجواهر بعضها أداة النفع للكسب وبعضها آلة الدفع في الحرب وأما الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل. [1]

نصيحة:

قال الشاعر: [2]

فكـن تاليـاً آي الكتـاب مـداويا ... بهـا كـل داء فهـي أرجـى دوائـه

فمنـه ينـابيع العلـوم تفجـرت ... و ما فاض من علم فمن عذب مائه

هـدى وشـفاء للقلـوب ورحمـة ... من الله يشفي ذوي العمـى بشـفائه

كن من أهل الحق ناصره، متبعا في ظلمات الليل نوره، واجعل وعائك الذي بين جنبيك مستقره، ولا تنسى أن كلام الله نزل بالحق، ويدعو إلى الحق، وقد رفع رايته الرسول وصحبه، فلا تغفل ولا تتبع خطوات العدو الذي توعدك منذ أنزل الله أباك ليمتحنه، ففي اتباع الحق الرفعة والسمو، وتتشبع الأرض الظمآنة من معينه، فارفع رايته يرفعك الله به المنازل، واجعل أرضك تستقبل الخير الذي أنزل

1) مدارك التنزيل وحقائق التأويل – النسفي، ص 543-544

2) أحمد بن علي بن حسن بن مشرف

معه، ولا يغرك كثرة أهل الباطل فهم غثاء كغثاء السيل، وتأمل معي حديث حذيفة بن اليمان فيما يرويه الثلاثة:

عن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان ﷺ[1] يقول: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يُدركني، فقلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: "نَعَم"، قلت: وهل بعدذلك الشرمن خير، قال: "نَعَم وفيه دَخَن"، قلتُ: ومادخنه؟قال: "قوم يَهدونَ بِغيرِهَدْيِي، تعرِفُ وَتُنكِرُ"، قلت: فهل بعدذلك الخيرمن شر؟قال: "نَعَم، دُعاة على أبواب جهنم، مَن أجابَهُم إليها قذفوهُ فيها"، قلت يا رسول الله صِفهُم لنا، قال: "هُم مِن جِلدَتِنا ويَتَكَلَّمون بألسِنَتِنا"،قلت:فماتأمُرني إن أدركني ذلك؟، قال: "تلزم جماعة المُسلِمين وإمامَهم"، قلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولاإمام، قال: "فاعتزل تلك الفِرَق كُلّها، ولوأن تَعَضّ بأصلِ شَجَرةحتى يُدرِكَكَ الموتُ وأنتَ على ذلك". (رواهالثلاثة).

۞۞۞

﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ(26) ﴾سورة الرعد

---

1) هو أبو عبد الله حذيفة بن حُسَيْل اليمان من بني عبس، جاء حذيفة هو وأخوه ووالدهما إلى رسول اللهﷺواعتنقوا الإسلام، وكان صاحب سر رسول اللهﷺ، ولقد نما ﷺ في ظل هذا الدين، وكانت له موهبة في قراءة الوجوه والسرائر، فعاش مفتوح البصر والبصيرة على مآتي الفتن، ومسالك الشرور ليتقيها.

المعنى:

أي يوسع على من يشاء من عباده، ويضيق على من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة وفرح هؤلاء المشركون بنعيم الدنيا فرح أشر وبطر، وهو إخبار في ضمنه ذم وتسفيه لمن فرح بالدنيا، ولذلك حقرها بقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾، أي عرض قليل وشيء حقير، بالنظر إلى الآخرة

اللغة:

- [مَتَاع] كل شيء يتمتع به إلى أجل ثم ينتهي ويفنى.

البلاغة:

- ﴿ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾أي إلا مثل المتاع الذي يستمتع به الإنسان في الحاجات المؤقتة، ففيه تشبيه بليغ لحذف الأداة ووجه الشبه.

لما أخبر عمن تقدمت صفته بأن ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25) ﴾سورة الرعد، أنحى بعد ذلك على أغنيائهم، وحقر شأنهم وشأن أموالهم، المعنى: أن هذا كله بمشيئة الله، يهب للكافر المال ليهلكه به، ويقدر على المؤمن ليعظم بذلك أجره وذخره، وقوله: ﴿وَيَقَدِرُ﴾أي من التقدير، فهو مناقض يبسط، ثم استجهلهم في قوله:﴿وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾وهي بالإضافة إلى

الآخرة متاع ذاهب مضمحل يستمتع به قليلا ثم يفنى، و(المتاع): ما يتمتع به مما لا يبقى وقال الشاعر:[1]

تمتـــع يـــا مشـــعث إن شـــيئا سـبقت بـه المـمات هـو المتـاع[2]

نصيحة:

ذكر لفظ (متاع) في القرآن الكريم عدد 33 مرة بمعنى ما يستمتع به الإنسان في حياته ثم يعتريه الفناء إما باضمحلاله أو بموت الإنسان ورجوعه إلى خالقه، وإليك هذه الآيات عسى أن تكون فيها موعضة حسنة لمن أراد الآخرة ومتاعها الدائم.

1- ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(36)﴾سورة البقرة

2-﴿لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ(236)﴾سورة البقرة

1) مُشعث العامري شاعِر جاهلي مُحسن من شُعراء الأصمعيات، مِن قبيلة بني عامر بن صعصعةمن هوازن

2) المحرر الوجيز – ابن عطية، ص311

3- ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(240)﴾سورة البقرة

4- ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ(241)﴾سورة البقرة

5- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ(14)﴾سورة آل عمران

6- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ(185)﴾سورة آل عمران

7- ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)﴾سورة آل عمران

8- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً(77)﴾سورة النساء

9- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(96)﴾سورة المائدة

10- ﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(24) ﴾سورة الأعراف

11- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ(38) ﴾سورة التوبة

12- ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(23) سورة يونس

13- ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ(70) ﴾سورة يونس

14- ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ(17) ﴾سورة يوسف

15- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ(65) ﴾سورة يوسف

16- ﴿قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ(79) ﴾سورة يوسف

17- ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ(17)﴾سورة الرعد

18- ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ(26)﴾سورة الرعد

19- ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ(80)﴾سورة النحل

20- ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(117)﴾سورة النحل

21- ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(111)﴾سورة الأنبياء

22- ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ(29)﴾سورة النــور

23- ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ(60)﴾سورة القصص

24- ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61)﴾سورة القصص

25- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَالله لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ الله وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ الله عَظِيمًا(53) ﴾سورة الأحزاب

26- ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ(44) ﴾سورة يـــس

27- ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ(39) ﴾سورة غافر

28- ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36) ﴾سورة الشورى

29- ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ(35) سورة الزخرف

30- ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ(73) ﴾سورة الواقعة

31- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(20) ﴾سورة الحديد

32- ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(33) ﴾سورة النازعات

33- ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(32) ﴾سورة عبس

المتاع لفظ يدل مفهومه من سياق هذه الآيات، على كل ما يتمتع به الإنسان في حياته منذ هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، إلا أن كتاب الله أعطى لمفهوم اللفظ دلالتين، متاع فاني في الحياة الدنيا ومتاع باقي في الحياة الأخرى.

الإنسان في هذه الحالة إما أن يتمتع في الأولى بما أحله الله له وهو مصدق بيقين أنه تاركه لا محالة ومنتقل إلى الأخرى لينعم بمتاع لا يفنى، فيحيى سعادتين فيهما: سعادة الروحلتيقنها أن ما ستلقاه غدا هو خير لها، فتكون أعمالهكلها صالحة فيها الخير، واقرأ إن شئت قوله تعالى في الآية رقم 14 من سورة آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ(14) ﴾سورة آل عمران، وهاك لاحقتها ليزداد يقينك، قوله تعالى بعدها: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(15) ﴾سورة آل عمران. أو قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(96) ﴾سورة النحل. وسعادة في الدنيا لإشتغاله بإصلاح إيمانه وقلبه لكي يلقى ربه بقلب سليم،

وتأمل قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(97) ﴾سورة النحل.

زيادة في الإعتبار، إليك أبياتا من الأشعار، علَّها تتضح الصورة لمتاع الدنيا وأحوال طلابها: يقول الشاعر: [1]

باتوا على قللِ الاجبـال تحرسُـهم ... غُلْبُ الرجالِ فـما أغنـتهمُ القُلـلُ
واستنزلوا بعد عزّ مـن معـاقلهم ... وأودعوا حفراً يـابئس مـا نزلـوا
ناداهمُ صارخٌ من بعد مـا قـبروا ... أيــن الاسرّةُ والتيجــانُ والحلــلُ
أين الوجوه التـي كانـتْ منعمـةً ... من دونها تُضربُ الأستارُ والكللُ
فافصــحَ القــبرُ حــين ســاءلهم ... تلك الوجوه عليها الـدودُ يقتتـلُ
قد طالما أكلوا دهـراً ومـا شربـوا ... فأصبحوا بعد طول الأكلِ قدأكلوا
وطالمـا عمّـروا دوراً لتُحصـنهم ... ففارقوا الدورَ والأهلينَ وارتحلوا
وطالمـا كنــزوا الأموالــوادّخروا ... فخلّفوهـا عـلى الأعـداءوانتقلوا
أضــحت منــازلُهم قفــراً معطلــةً ... وساكنوها الى الاجداث قدرحلوا
ســلِ الخليفــةَ إذ وافــت منيتــهُ ... أين الحـماة وأيـن الخيـلُ والخـولُ
أين الرماة أمـا تُحمـى بأسـهمِهمْ ... لّمـا أتتـك سـهامُ المـوتِ تنتقـلُ

1) ينسب هذا الشعر إلى الحسين عليه السلام.

أين الكماةُ أما حاموا أما اغتضبوا   أين الجيوش التي تُحمى بهاالدول
هيهات ما نفعوا شيئاً وما دفعـوا   عنـك المنيـة إن وافى بهـا الأجـلُ
فكيف يرجو دوامَ العيش متصلاً   من روحه بجبـالِ المـوتِ تتصـلُ

و كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات[1] :

لا شيء ممـا تـرى تبقـى بشاشـته   يبقى الإلـه ويفنـى المـال والولـد
لم تغن عـن هرمـز يومـاً خزائنـه   و الخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سـليمان إذ تجـري الريـاح لـه   والإنـس والجـن فـيما بينهـا تـرد
أيـن الملـوك التـي كانـت لعزتهـا   من كـل أوب إليهـا وافـد يفـد ؟
حوض هنالك مورود بلا كـذب   لا بد مـن ورده يومـاً كـما وردوا

وقال شرف الدين بن أسد:

يـا مـن تملـك ملكـاً لا بقـاء لـه   حملـت نفسـك آثامـاً وأوزارا
هل الحياة بذي الدنيا وإن عذبت   إلا كطيف خيـال في الكـرى زارا

وقال بعضهم:

وغايـة هـذي الـدار لـذة سـاعة   ويعقبها الأحـزان والهـم والنـدم

---

1) قصائد وأبيات في الزهد والوعظ والرقائق، ملتقى أهل الحديث، موقع إلكتروني:
http: //www.ahlalhdeeth.com

وهاتيك دار الأمن والعز والتقى ورحمة رب الناس والجود والكرم

و قال آخر:

سبيلك في الدنيا سبيل مسافر ولا بد من زاد لكل مسافر

ولا بد للإنسان من حمل عدة ولا سيما إن خاف صولة قاهر

وقال شاعر آخر:

وإن المرء قد سار سِتِّينَ حجةً إلى منهل من ورده لقريب

وقد اتضح القول واستبان السبيل، فما على صاحب الْلُّب إلا إيثار الآخرة على الأولى ليكون من الناجين يوم القيامة حيث لا ينفع الندم.

من سورة إبراهيم

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ(18)﴾سورة إبراهيم.

المعنى:

أي مثلُ أعمالِ الكفار التي عملوها في الدنيا، يبتغون بها الأجر، من صدقة وصلة رحم وغيرها، مثلُ رمادِ عصفت به الريح، فجعلته هباء منثورا، في يوم شديد هبوب الريح، قال القرطبي: ضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفار في أنه يمحقها، كما تمحق الريح الشديدة الرماد، في يوم عاصف، لأنهم أشركوا فيها غير الله ولا يقدر الكفار على تحصيل ثواب ما عملوا، من البر في الدنيا لإحباطه بالكفر، كما لا يستطيع ان يحصل الإنسان على شيء من الرماد، الذي طيرته الريح، ذلك هو الخسران الكبير

(مَّثَلُ ٱلَّذِينَ)مبتدأ محذوف الخبر أي: فيما يتلى عليكم مثل الذين (كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ) والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة، وقوله: (أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ) جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد (ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ) وفي قراءة المدني (الرِّيَاحُ)، (فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ) جعل العصف لليوم، وهو لما فيه والريح كقولك: يوم ماطر، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام وعتق الرقاب وفداء الأسرى وعقر الإبل للأضياف وغير

ذلك، شبهها في حبوطها لبنائها على غير أساس، وهو الإيمان بالله تعالى – برماد طيرته الريح العاصف (لَّا يَقۡدِرُونَ) يوم القيامة (مِمَّا كَسَبُواْ) من أعمالهم (عَلَىٰ شَيۡءٖ) أي لا يرون أثرا من ثواب، كما لا يقدر من الرماد المتطاير في الريح على شيء، (ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ) إشارة إلى بُعْد ضلالهم عن طريق الحق، أو عن الثواب.[1]

يشير ابن عطية في كتابه – المحرر الوجيز – أن هناك اختلاف بين النحويين في سبب رفع (مثلُ) فمذهب سيبويه رحمه الله أن التقدير: فيما يتلى عليكم أو يقص: (مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)، ومذهب الكسائي والفراء: أنه ابتداء خبره (كَرَمَادٍ) والتقدير عندهم: مثل أعمال الذين كفروا كرماد، وقد حكي عن الفراء: أنه يرى إلغاء (مثلُ) وأن المعنى: الذين كفروا أعمالهم كرماد، وقيل: هو ابتداء (أَعۡمَٰلُهُمۡ) ابتداءثان، و(كَرَمَادٍ) خبر الثاني، والجملة خبر الأول، وهذا ما رجحه ابن عطية فقال: وكأنك قلت: المتحصل مثالا في النفس للذين كفروا هذه الجملة المذكورة، وهي: (أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ)، ودعم رأيه مستشهدا بقوله تعالى في الرعد الآية 35 ومحمد الآية 15: (مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ) وشبهت أعمال الكفرة ومساعيهم في فسادها وقت الحاجة وتلاشيها بالرماد الذي تذروه الريح وتفرقه بشدتها حتى لا يبقى منه أثر، ولا يجتمع منه شيء، ووصف اليوم بـ (العاصف) وهي من صفة

1) مدارك التنزيل وحقائق التأويل – للنسفي، ص 554

الريح بالحقيقة، لما كانت في اليوم؛ فأعمال الكفرة لتلاشيها لا يقدرون منها على شيئ، وقرأ نافع وحده وأبو جعفر (الرِّيَاحُ) والباقون (ٱلرِّيحُ) بالإفراد.[1]

اللغة:

- [عَاصِفٍ] شديد الريح

البلاغة:

1 - التشبيه التمثيلي﴿ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

نصيحة:

الأعمال التي ترضي الله عزّ وجلّ، تبنى على أسس إيمانية، فمن لم يؤمن بوجود الله تعالى ولا باليوم الآخر ولا بالرسل والكتب المنزلة عليهم، فلا تقبل منه أعماله حتى وأن كان ظاهرها فيه الخير والصلاح، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا(23) ﴾سورة الفرقان، هذا في حق الكفرة، وهم كثير على مر الزمن واختلاف الأجناس، غير أن المؤمن مطالببشئ آخر أكثر دقة وأبلغ أثرا في قبول العمل الصالح ألا وهو الإخلاص.

و قد سئل الإمام الجنيد عن الفرق بين الإخلاص والصدق؛ فاقتبست لك كلمات فيها الحقيقة لمن أراد أن يؤسس عمله من البداية على الإخلاص ليكتب له

1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية، ص 331-332

القبول إن شاء الله، أما بعد فإنك سألت عن الفرق بين الإخلاص والصدق فأجاب:

فمعني الصدق القيام على النفس بالحراسة والرعاية لها، بعد الوفاء منك بها عليك مما دلّك العلم عليه، في إقامة حدود الأحوال في الظاهر، مع حسن القصد إلى الله عزّ وجلّ في أول الفعل.

فالصدق موجود في حقيقة صفات الإرادة، عند بداية الإرادة، بالقيام بها دعتْ إليه حقيقة إرادتك، مما طرق الحق لك إليه، والمبادرة فيه بالخروج عن موافقة النفس لطلب الراحة، مع انتصاب العلم لك وموافقتك له، بخروجك من التأويل.

فالصدق موجود قبل وجود الإخلاص، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ(8) ﴾سورة الأحزاب، ثم سألهم بعد ما أوتوا الصدق: ما أرادوا بصدقهم، وقد سمى الله الصادقين في موضع آخر على غير هذا المعنى فقال عزّ وجلّ: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(119) ﴾سورة المائدة، فكان الصدق في الأول علما للخلق وفصلا بينهم وبين الإخلاص موجود في صفة الخلق عند حالَيْن: حال الإعتقاد والنية، وحال الفعل والعمل، فالإخلاص في صفة الصادق موجود في العقد غير منسوب إلى الصدق إلا بوجود (أوائل الإخلاص في باطنه)، وباق عليه علم موارد الأشياء عند

ممارسة الفعل بالجوارح والتخلص لفعله عن عوارض أضداد الإخلاص، حتى سمي مخلصا.

فأول الإخلاص أن يفرد الله تعالى بالإرادة، والثاني أن يخلص الفعل من الآفة، فالصدق الذي هو عند الخلق صدق، فرق بينه وبين الإخلاص، والصدق الذي عند الله تعالى هو الصدق مع الإخلاص، وقد يقال فلان صادق لما يرى عليه من صفات العلم وبذل المجهود منه، ولا يقال فلان مخلص لغلبة الخلق عن علم إخلاصه، فالصدق مشهود من صفة الصادق، والإخلاص معدوم من مشهده، فالصادق موصوف بحسن صفات شاهده، منسوب إلى الصدق بدلائل ظاهره، مع وجود أوائل الإخلاص في باطنه، باق عليه علم موارد الأشياء عند وروده، يقبل ما وافق الأول من معنى قصده، ويرد ما خالف علم ظاهره، فالإخلاص يعلو الصدق لوجود زيادة العلم، مع وجود قوة الرد لما عارض من وساوس العدو، لوجود صفاء القلب، ولا يعلو الإخلاص شيء، لأنه لا غاية في العبودية من حيث العبد فوق الإخلاص، ولا يقال إخلاص المخلص، لأنه لا غاية بعد الإخلاص، وقد قال تعالى: (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ) ولم يقل ليسأل المخلصين عن إخلاصهم، لأن غايته من الخلق فيما استعبدهم به، فالإخلاص يعلو الصدق والصدق دونه.

ثم يواصل الإمام الجنيد بقوله:

والصدق على ثلاثة أشياء: صادق بلسانه، وهو القائل بالحق له كان أم عليه بخروجه عن التأويل والتدليس، وصادق في فعله، وهو الباذل للمجهود من نفسه بإخراج وجود راحته، وصادق بقلبه وهو القصد إليه في فعله، فعند وجود هذه الخصال يكون صادقا، مع أن الصدق موجود من الصادق في كل حال لا يستغني عنه حال من الأحوال.

فالصدق في التَّورع والتَّزهد والزهد والتوكل والرضا والمحبة والشوق والتوحيد لأهل الصلاح، في صفات المريد والمراد، والذاكر والمذكور، وكل ذلك لا بد من أن يتولد له شاهد ظاهر يشهد له بالصدق.

معنى الإخلاص إفراد النية لله عزّ وجلّ وحسن القصد إليه، بحضور العقل عند موارد الأشياء، وبيان تلوين الأمور عليه، بما يوافق الأول في معنى صحة قصده، ورد ما خالف ذلك من موارد النفس والعدو، مع ذهاب رؤية النفس بوجود رؤية المنة، مع وجود حسن العزاء عند المذمة من الخلق، لوجود حسن المعرفة بالفضل، ووجود الكراهة عند المحمدة، لخوف فساد المعرفة بذهاب رؤية الخلق عند مصادفة الأحوال، فهذا علم مشهود عند شاهد المخلص معدوم عند شاهد الخلق، فالصدق والإخلاص يتفقان في حال المخلص، وينفرد الصدق بالصادق.[1]

---

1) رسائل الجنيد – في الفرق بين الصدق والإخلاص، ص 52-53-54

بعد هذه الموازنة بين الصدق والإخلاص، فالواجب على كل مؤمن أن يسعى جهده لبلوغ مرتبة المخلصين بتصحيح النية في كل مرة أراد إخراج الفعل للظهور، ولايكون ذلك إلا بالمجاهدة لدواعي النفس والهوى والعدو المتربص، لكي يكون من الصادقين المخلصين، وتكون أعماله في ميزان القبول لدى المتصف بالسميع العليم الذي لا تضيع لديه الودائع، وقد علمت ورأيت بعين بصيرتك في هذا المثل، أن الريح العاصف تنسف الرماد في الفضاء ولا يمكن استرداده، لخلو العمل الظاهر من الأسس الإيمانية في الباطن، فاحذر هبوب الرياح المصاحبة لآفات النفس، من رياء وكبرياء ورؤية الخلق في الأفعال والأقوال، واجعل صورة المثل ماثلة في حياتك لأنك لا تدري في أي وقت تلقى مولاك فلا تجد شيئا من أعمالك إذا كان الإخلاص غائبا.

۞۞۞

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (26)يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاء(27) ﴾سورة إبراهيم

المعنى:

هذا مثل ضربه الله لكلمة (الإيمان) وكلمة (الإشراك)، فمثل لكلمةالإيمان بالشجرة الطيبة، ولكلمة الإشراك بالشجرة الخبيثة، قال ابن عباس: الكلمة الطيبة "لا إله إلا الله" والشجرة الطيبة،أصلها راسخ في الأرض، وأغصانها ممتدة نحو السماء، تعطي ثمرها كل وقت، بتيسير الخالق وإبداعه، كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن، وعمله يصعد إلى السماء، ويناله بركته وثوابه في كل وقت، ويبين لهم الأمثال لعلهم يتعظون فيؤمنون، ومثل كلمة الكفر الخبيثة، كشجرة الحَنظل الخبيثة استؤصلت من جذورها واقتلعت من الأرض، لعدم ثبات أصلها، ليس لها استقرار وثبات، كذلك كلمة الكفر، لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة، قال ابن الجوزي: شُبه مايكسبه المؤمن من بركة الإيمان وثوابه، في كل وقت، بثمرتها المجتناة في كل حين، فالمؤمن كلما قال (لا إله إلا الله) صعدت إلى السماء ثم جاء خيرُها ومنفعتها، والكافر لا يُقبل عمله، ولا يصعد إلى الله تعالى، لأنه ليس له أصل في الأرض ثابت، ولافرع في السماء ممتد، ويثبت الله الذين آمنوا على كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وعلى الإيمان في هذه الحياة، فلا يزيغون ولا يُفْتنون عند سؤال الملكين في القبر، كما جاء في الحديث الشريف: (المسلم إذا سئل في القبر شهد ان لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله) فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ..﴾ الآية، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يهديهم في الحياة ولا عند سؤال الملكين وقت الممات، ﴿ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي من هداية المؤمن وإضلال الكافر، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

قال النسفي في كتابه مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أن الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها المثل في هذه الآية هي كلمة التوحيد، أصلها تصديق بالجنان وفرعها إقرار باللسان وأكلها عمل بالأركان، وكما أن الشجرة شجرة وإن لم تكن حاملا، فالمؤمن مؤمن وأن لم يكن عاملا، ولكن الأشجار لا تراد إلا للثمار، فماأقوات النار إلا من الأشجار إذا اعتادت الإخفار في عهد الإثمار؛ والشجرة كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين ونحو ذلك، والجمهور على أنها النخلة، فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: (إن الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي ؟) فوقع الناس في شجر البوادي وكنت صبيا، فوقع في قلبي أنها النخلة فهبت رسول الله أن أقولها وأنا أصغر القوم فقال رسول الله ﷺ:(ألا إنها النخلة) فقال عمر يا بني: لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حمر النعم [1] .

ابن عطية في المحرر الوجيز، يشير إلى أن (ضَرَبَ) تتعدى إلى مفعولين، لأنها بمنزلة جعل ونحوه إذ معناها: جعل ضربها، وقال المهدوي: (مَثَلًا) مفعول، و(كَلِمَةً) بدل منه، والكاف في قوله: (كَشَجَرَةٍ) في موضع الحال، أي مشبهة شجرة.

كل أهل التفسير متفقون على أن (كَلِمَةً طَيِّبَةً) هي لا إله إلا الله كما ذكر القاضي أبو محمد عن ابن عباس، وهي النخلة في قول أكثر المتأولين، فكأن هذه

1) متفق عليه

الكلمة (أَصۡلُهَا ثَابِتٌ) في قلوب المؤمنين، وفضلها وما يصدر عنها من الأفعال الزكية والحسنة وما يتحصل من عفو الله ورحمته، هو فرعها يصعد إلى السماء من قبل العبد، ويتنزل بها من قبل الله تعالى.

و قال آخرون أنها مثل الله بـ (الشَّجَرَةُ الطَّيِّبَة) المؤمن نفسه، إذ الكلمة الطيبة لا تقع إلا منه، فكأن الكلام كلمة طيبة وقائلها، وكأن المؤمن ثابت في الأرض وأفعالها وأقواله صاعدة، فهو كشجرة فرعها في السماء، وما يكون أبدا من المؤمن من الطاعة، أو عن الكلمة من الفضل والأجر والغفران هو بمثابة الأكل الذي تأتي به كل حين.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن تكون الشجرة غير معينة إلا أنها كل من اتصف بهذه الصفات فيدخل في ذلك النخلة وغيرها، وقد شبه الرسول عليه الصلاة والسلام المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة، فلا يتعذر أيضا أن يشبه بشجرتها، و(الأُكُلُ) الثمر وقرأ عاصم وحده (أكُلها) بضم الكاف[1].

اللغة:

- [ٱجۡتُثَّتۡ]أقتلعت من أصلها.

البلاغة:

تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية، ص 335-336

1- التشبيه المرسل المجمل ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ومثلها﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾.

2- الطباق في [أَصْلُهَا .....وَفَرْعُهَا] وفي [طَيِّبَةٍ .. خَبِيثَةٍ]

3- التعجب﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ ﴾، الاستفهام للتعجب من الأمر.

نصيحة:

شبهك الله في هذا المثل الرائع بصورته وبيانه، حينما يستقر الإيمان في قلبك، وتظهر الأعمال الصالحة على الجوارح وتحضى بالقبول عند من يحاسبك على كل صغيرة وكبيرة، بالنخلة ذات الأصول الراسخة في الأرض تمتص منها الماء الصافي وتصعد في السماء ممتدة على اسقامة واحدة لتخرج ثمارها وتنضج في العلو حيث الهواء الصافي النقي، تتحدى الرياح وتقلباتها ولا تتأثر مهما طال الزمن، لأنها من الأشجار المعمرة التي تعيش أحيانا أطول من عمرك المحدود، ويتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد، وتبقى شجرة ثابة وفرعها في السماء.

هل تصورت معي مدى رسوخ كلمة التوحيد في قلوب المؤَحِدين ؟ وهل تصورت معي أن الإيمان ثماره طيبة ظاهراوباطنا ؟ ما أجمل وأروع أن يكون المؤمن كهذه الشجرة، يدعو الناس للأكل من ثمارها قولا وفعلا !

وثبات الإيمان في قلبك يعود عليك بالفائدة غدا واقرأ إن شئت قوله تعالى: (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاء (27) سورة إبراهيم.

كن نخلة في وجودك الإيماني، وأتْرُجةً في وجودك القرآني، وخالق الناس بخلق حسن، لأنك صاحب رسالة واستحضر قوله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(33) ﴾سورة فصلت

من سورة النحل

﴿لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلله الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(60) ﴾سورة النحل

المعنى:

أي لهؤلاء الذين لم يصدقوا بالآخرة، ونسبوا لله البنات سفهاً وجهلا، صفةُ السوء القبيحة التي هي كالمثل في القبح، فالنقصُ إنما ينسب إليهم لا إلى الله، وله جل وعلا الوصف العالي الشأن، والكمال المطلق، والتنزه عن صفات المخلوقين وهو العزيزُ في ملكه، الحكيمُ في تدبيره.

فكلمة (مَثَلُ) في هذه الآية بمعنى صفة، أي لهؤلاء صفة السوء ولله الوصف الأعلى.

قال القاضي أبو محمد: وهذا لا يضطر إليه، لأنه خروج عن اللفظ، بل قوله (مَثَلُ) على بابه، وذلك أنهم إذا قالوا إن البنات لله فقد جعلوا له مثلا أبا البنات

من البشر، وكثرة البنات عندهم مكروه ذميم، فهو مثل السوء الذي أخبر الله تعالى أنه لهم ليس في البنات فقط، لكن لما جعلوه هم في البنات جعله هو لهم على الإطلاق في كل سوء، ولا غاية أبعد من عذاب النار، (وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ) على الإطلاق أيضا في الكمال المستغني، وقال قتادة (ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ) لا إله إلا الله.

نصيحة:

يقول علماء العقيدة أن على المكلف أن يعرف ما يثبت في حق الله عزّ وجلّ، وهو قسمان عام ومفصَّل، فالعام: أن يعرف ويعتقد أن كل كمال فهو واجب لله تعالى، والتفصيل أن يعرف ويعتقد بالصفات العشرين الواجبة[1]، كما يلزمه أن يعرف ما يستحيل في حق الله تعالى عموما وتفصيلا، فالعموم أن يعتقد أن كل نقص فهو مستحيل في حق الله عزّ وجلّ، والتفصيل الإعتقاد بأضداد[2] الصفات العشرين الواجبة، كما يلزمه أن يعرف ويعتقد بما يجوز في حق الله عموما وتفصيلا، فالعموم أن يعتقد أن فعل كل ممكن أو تركه فهو جائز في حق الله، والتفصيل بأن يعتقد العقائد السمعية كأمور الآخرة فإنها جائزة عقلا وواجبة شرعا.

1) الوجود – القدم – البقاء – مخالفته الحوادث – قيامه تعالى بنفسه – الوحدانية – القدرة – الإرادة – العلم – الحياة – السمع –البصر – الكلام – كونه: قادرا – مريدا – عالما – حيا – سميعا – بصيرا – متكلما. (تهذيب شرح السنوسية أم البراهين: سعيد عبد اللطيف فودة)

2) هي كل الصفات المستحيلة على الله عزّ وجلّ والتي تضاد الصفات الواجبة في حقه (مثلا يستحيل في حقه العدم وهو ضد الوجود وهكذا)

ويلزمه شرعا أن يعرف مثل الأقسام المتقدمة والتي هي الوجوب والإستحالة والجواز في حق الرسل ومثلهم الإنبياء..

في هذه الآية توضيح أن من أَلْحَقَ بالله عزّ وجلّ مالا يليق من الصفات فقد تبوأ معقده من النار، لأنه سبحانه وتعالى مخالف للحوادث أي يجب نفي المشابهة في الذات والصفات والأفعال، والدليل قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (11) سورة الشورى ومن السُّنَةِ ما ورد عن أُبَيٍّ بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ (1) الله الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4) ﴾سورة الإخلاص

وقد أجمعت الأمة على أن الله عزّ وجلّ مخالف للحوادث.

كن على حذر-في القول والإعتقاد- أن يصدر عنك ما يحمل في مضمونه مشابهته بالحوادث في الذات أوالصفات أوالأفعال، واجعل نصب عينيك أن كل ما يخطر ببالك فالله بخلاف ذلك، تنجو من التوهم العقدي وما يحمل من تشبيه أوتجسيم أو تعطيل أو تمثيل، فإن المصيبة الكبرى التي تصيب إيمان المرء هي دخول الزيغ في قلبه وانحراف اعتقاده والتصريح بلسانه دون علم، فيهوي في نار جهنم وهو لا يدري.

لكي تعم الفائدة إليك جدولا[1] يوضح الصفات الواجبة والجائزة والمستحيلة في حق الله تعالى:

---

1) شرح أركان الإيمان لأمة الإسلام من منظومة عقيدة العوام – تنسيق وترتيب الدكتور: عمر عبد الله كامل

الجدول

الواجبة (عدم قبول الإنتفاء في العقل)	المستحيلة (انتفاء قبول الثبوت في العقل)	الجائزة (قبول الثبوت والإنتفاء في العقل)
الصفات النفسية (الوصف بها دل على نفس الذات دون معنى زائد عليها)		1- فعل كل ممكن 2- ترك كل ممكن
1 - الوُجُود	1- الْعَدَم	
الصفات السلبية (ينتفي بها أمر لا يليق بالله تعالى)		
2- القِدَم	2- الحُدُوث	
3- البَقَاء	3- طُرُوِّ العَدَم	
4- مخالفته للْحَوَادِث	4- المماثلة للْحَوَادِث	
5- قيامه بنفسه	5- أن لا يكون قائما بنفسه	
6- الوِحْدَانِيَة	6- أن لا يكون واحد	

صفات المعاني(هي الصفات الوجودية)			
7- القُدرة		7- العَجْزُ عن ممكن ما	
8- الإرادة		8- عَدَمُ الإرادة	
9- العِلْم		9- الجَهْل	
10- الحَيَاة		10- المَوْت	
11- السَّمْع		11- الصَّمَم	
12- البَصَر		12- العَمَى	
13- الكَلاَم		13- البُكْم	
الصفات المعنوية (منسوبة للمعاني أي أنها ملازمة لها)			
14- كونه تعالى قادرا		14- كونه تعالى غير قادر	
15- كونه تعالى مريدا		15- كونه تعالى غير مريد	
16- كونه تعالى عالما		16- كونه تعالى غير عالم	

17- كونه تعالى حيا		17- كونه تعالى غير حي	
18- كونه تعالى سميعا		18- تعالى غير سميع	
19- كونه تعالى بصيرا		19- كونه تعالى غير بصير	
20- كونه تعالى متكلما		20- كونه تعالى غير متكلم	

وهذه الصفات العشرون تبرز صفات الكمال لله سبحانه وتعالى وتنفي عنه صفات النقص، وعدم الإيمان بشيء منها مُخِلُ بالعقيدة.

۞۞۞

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(76)﴾سورة النحل.

المعنى:

هذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه، وللأصنام التى أشركوها مع الله جل وعلا، أي مثل هؤلاء في إشراكهم، مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك يتصرف في أمره كيف يشاء، مع أنهما سيان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى، فما الظَّن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات ؟فهو ينفق ماله في الخفاء والعلانية ابتغاء وجه الله، هل يستوي العبيد والأحرار الذين ضُرب لهم المثل، فالأصنام كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء، والله تعالى له المُلك، وبيده الرزق، وهو المتصرف في الكون كيف يشاء، فكيف يُسؤى بينه وبين الأصنام ؟ شكراً لله على بيان هذا المثال، ووضوح الحق، فقد ظهرت الحجة مثل الشمس الساطعة، ولكن المشركين بسَفَهِهِم ْوجَهْلِهِمْ، يُسَوُّون بين الخالق والمخلوق، والمالكِ والمملوك؛ ثم ضرب الله مثلا ثانيا للتفريق بين الإله الحق والأصنام الباطلة، قال مجاهد: هذا مثل مضروبُ للوثن والحق تعالى، فالوثنُ أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير، ولا يقدر على شيء بالكلية، لأنه إما حجر أو شجر، وهو ثقيل عَالَة على وليه أو سيده، حيثما أرسله سيده، لا ينجح في مسعاه، لأنه أخرس، بليد، ضعيف الفهم، هل يتساوى هذا الأخرس، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان، وهو على طريق الحق والاستقامة، مستنير بنور القرآن ؟ وإذا كان العاقل لا يسوى بين هذين الرجلين، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر ؟ وبين الله سبحانه وهو القادر العليم، الهادي إلى الصراط المستقيم.

المناسبة:

لما ذكر تعالى سفاهة المشركين في عبادتهم لغيرالله، أعقبه بذكر مثلين، توضيحا لبطلان عبادة الأوثان، التي لا تضر ولا تنفع، ولا تستجيب ولا تسمع، ثم ذكر الناس ببعض النعم التي أفاضها عليهم ليعبدوه ويشكروه، ويخلصوا له العمل طائعين منيبين.

اللغة:

- [أَبْكَمُ] الأبكم: الأخرس الذى لا ينطق
- [كَلٌّ] الكَل: الثقيل الذى هو عالة على الغير، وقد يسمى اليتيم (كَلاًّ) لثقله على من يكفله، قال الشاعر:

أكـولٌ لمـال الكَـلِّ قبْـلَ شـبابه   إذا كان عظـمُ الكَـلِّ غـيْرَ شـديد

البلاغة:

تضمنت الآيات الكريمة وجوها من وجوه البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

1- الاستعارة التمثيلية﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ.. ﴾الآية تمثيل للوثن بالرجل الأبكم الذى لا ينتفع منه بشيء أصلا، مع الإله القادر السميع البصير وشتان بين الرب والصنم، ففيها (استعارة تمثيلية) بديعة.

2- الطبا ق بين [سِرًّا وَجَهۡرًاۖ]

بعد أن خاطب الله تعالى المشركين بآية فيها تقريع وتوبيخ وإظهار لفساد معتقدهم في الإصنام التي يعبدونها ويتقربون إليها ويلتمسون لديها الدعاء بأن ترزقهم، وهي لا تملك الرزق ولا إثبات نعمة، ومع أنها لا تملك شيئا فهم يؤمنون بها، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ (73) سورة النحل، فهم لا يستطيعون أن يبرهنوا على صحة معتقدهم في الأصنام التي يعبدونها، أو أنها لا تستطيع تحقيق الرزق لهم لعجزها عن ذلك، فلا تجعلوا لله مثلا فإنه لا مثل له أي: فلا تجعلوا لله شركاء.

ضرب الله المثل بعد ذلك فقال (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا) هو بدل من مثل (لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًا) مصدران في موضع الحال أي: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه ما يشاء، وقيد بالمملوك ليميزه عن الحرِّ، لأن اسم العبد يقع عليهما جميعا إذ هما من عباد الله وبلا يقدر على شيء ليمتاز من المكاتب والمأذون فهما يقدران على التصرف، ومن موصوفة أي: وحرا رزقناه ليطابق عبدا أو موصوله (هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ) جمع الضمير لإرادة الجمع أي لا يستوي القبيلان (ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ) بأن الحمد والعبادة لله.

ثم زاد في البيان ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ الأبكم الذي ولد أخرس فلا يَفْهم ولا يُفهم ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي ثقيل وعيال على من يلي أمره ويعوله ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ حيثما يرسله ويصرفه مي مطلب حاجة، أو كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجح ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي ومن هو سليم الحواس نفَّاع ذو كفايات مع رشد وديانة فهو يأمر الناس بالعدل والخير ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على سيرة صالحة ودين قويم، وهذا مثل ثان ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من آثار رحمته ونعمته وللأصنام التي هي مَوَات لا تضر ولا تنفع.[1]

نصيحة:

تصحيح الإعتقاد هو أول ما يجب على المرء الإهتمام به، في عصر انفتح العالم على ثقاقات وديانات شتى، واستغلت فيه وسائل الإتصال لنشر هذه الثقافات وهذه المعتقدات، وأصبح الإنسان في مختلف الأعمار يتلقى تدفقا عارما من المعلومات لا يميز بين الصالح منها والطالح.

المسلم لا يستطيع غربلة هذه المعتقدات إلا إذا تحصن بحصنه المنيع، كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

---

1) مدارك التنزيل وحقائق التأويل – النسفي ص 590-591

كان الوثن قديما مصنوعا من الحجر والطين، ينحته الإنسان ويعتقد فيه النفع والضر، فيتقرب إليه بالعبادة والقرابين ليتحصل منه على مبتغاه، فبعث الله الرسل والأنبياء ليصححوا هذا الباطل العقدي الذي أصاب عقل الإنسان، وفي كل مرة يعود الإنسان إلى ضلاله، يذكره مولاه بإرسال رسول آخر حتى ختم الرسالات بالإسلام الخالد، والأنبياء والرسل بمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (213) ﴾سورة البقرة.

وبعد أن كان الناس أمة واحدة على التوحيد، حصل الزيغ والانحراف. وكان أول انحراف حدث هو الغلو في تعظيم الصالحين، ورفعهم إلى مرتبة الآلهة المعبودة.

ففي صحيح البخاري مِن حديث ابن جُرَيْج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) ﴾سورة نوح، قال: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا

يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبَد. حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العِلم (نُسِيَ ودَرَسَ)عُبِدَت".صحيح البُخاري: 4920.

فهذا أول انحراف وُجِدَ في تاريخ البشرية عن التوحيد، فأرسل الله إليهم أول رُسله نوحاً عليه السلام مِصداقاً لوعده الذي أعطاه لأبي البشر آدم بإرسال الرُّسُل وإنزال الكُتُب هدايةً للبشر.

وهكذا استمرت رحمة الله وعنايته ببني آدم كلما ضلوا وزاغوا أنزل إليهم هُداه يُضيء لهم الظلمات: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (44) ﴾سورة المؤمنون

هل تمثلت المثل الأول الذي ضربه الله في هذه الآية ؟: كأنه يقول لك: كيف سويتموه بي وأنا الرازق أنفق عليكم ؟

وهل تمثلت المثل الثاني الذي ضربه الله في الآية ؟: كأنه يقول لك: كيف عدلتموه بي في العبادة وأنا لست بأبكم، خلقتكم بكلمة واحدة وأقدرتكم من قدرتي على دنيا محشوة بالنعم، أعولكم وأطعمكم ولا تطعموني؟.

فحقق إيمانك بالتوحيد الخالص، وحقق عبادتك بالإخلاص له فيها دون شريك، ونور عقلك بالعلم الموصل إلى معرفة وحدانيته وأحديته وألوهيته وربوبيته، لينطق لسانك بكلمة التوحيد وتعمل جوارحك بمقتضاها ويعمر قلبك نورها، لكي يكتب لك النجاة فـ: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا

دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (48) ﴾سورة النساء، و: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا (116) ﴾سورة النساء

۞۞۞

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(92) ﴾سورة النحل

المعنى:

هذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده، شبهت الآية الذى يحلف ويعاهد، ويُبرم عهده ثم ينقضه، بالمرأة التى تغزل غزلها وتفتله محكما، ثم تحلُه أنكاثاَ أى أنقاضاَ، قال المفسرون: كان بمكة امرأة حمقاء تغزل غزلها ثم تنقضه، وكان الناس يقولون: ما أحمق هذه !! [1]

اللغة:

- [تَنقُضُواْ] النقض ضد الإبرام، وهو فك أجزاء الشيء بعضها من بعض

1) صفوة التفاسير: علي الصابوني – ج2

- [تَوۡكِيدِهَا] التوكيد التثبيتُ يقال: توكيد وتأكيد
- [أَنكَٰثٗا] أنقاضا والنكث: النقض بعد القتل
- [دَخَلَۢا] الدخل: الدغل والخديعة والغش، قال ابن عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخَل

البلاغة:

تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي:

1 - التشبيه التمثيلي﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا ﴾ الآية شبه تعالى من يحلف ثم لا يفى بعهده، بالمرأة التي تغزل غزلا ثمتنقضه وهي حماقة واضحة.

كان لعمرو بن كعب بن سعد بنتاً تسمى رَيْطَة وكانت إذا غزلت الصوف أو شيئا آخر نقضته لحمقها فقال: ولا تنقضوا أي لا تنكثوا العهود بعد توكيدها كما نقضت تلك الحمقاء غزلها من بعد قوة من بعد إبرامه أنكاثا يعني نقضا فلا هو غزل تنتفع به ولا صوف ينتفع به فكذا الذي يعطي العهود ثم ينقضه لا هو وفى بالعهد إذا أعطاه ولا هو ترك العهد فلم يعطه. [1]

1) الأمثال في الكتاب والسنة: الحكيم الترميذي – ص10

نصيحة:

العهد عقد يبرم بين طرفين، الطرف الأول يعطي العهد والثاني يأخذه، ويكون على أمر بيِّن يتفقان عليه، وقد أمرنا ديننا أن نفي بالعهد في الكثير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية.

هذه السجية من مكارم الأخلاق التي جاء رسول الله ﷺ لإتمامها، وعلى الذي يعطي العهد أن يلتزم بالوفاء به مهما كانت الظروف.

معنى الوفاء لغةً: الوفاءُ ضدَّ الغَدْر، يقال: وَفَّى بعهده وأَوْفَى. بمعنى، ووَفَّ بعهده يَفِي وفاءً، وأَوْفَى: إذا تمم العهد ولم ينقض حفظه.[1]

معنى الوفاء اصطلاحًا: الوفاء هو: (ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء)[2]، وقيل: (هو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه، ويرهن به لسانه، والخروج مما يضمنه، وإن كان مجحفًا به)[3].

لكي يتضح المفهوم وتكون صورة المثل ماثلة في عين بصيرتك، أقدم لك قصة واقعية حدثت في زمن الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، في مجتمع فهم الخطاب الرباني حول موضوع العهد والوفاء به فكانوا قمَّة في الأخلاق وأعلاما كالجبال الشامخة في مدينة الفضائل التي بناها رسول الله.

1) مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني (ص 878)، لسان العرب: لابن منظور (15/ 398)

2) التعريفات: للجرجاني (ص 253) . والتوقيف على مهمات التعاريف: للمناوي (ص 339)

3) تهذيب الأخلاق: المنسوب للجاحظ (ص 24)

أتى شابَّان إلى الخليفة عمر بن الخطاب‏ﷺوكان في المجلس، وهما يقودان رجلاً من البادية فأوقفوه أمامه، قال عمر: ما هذا؟ قالا: يا أمير المؤمنين، هذا قتل أبانا، قال: أقتلت أباهم؟ قال: نعم قتلته، قال: كيف قتلتَه؟ قال: دخل بجمله في أرضي، فزجرته فلم ينزجر، فأرسلت عليه حجرًا وقع على رأسه فمات، قال عمر: النفس بالنفس، لا بد أن تُقتل كما قتلت أباهما، وانظروا إلى سيدنا عمر لم يسأل عن أسرة هذا الرجل، هل هو من قبيلة قويَّة أو ضعيفة؟ هل هو من أسرة معروفة ولها أهميَّة في المجتمع؟ كل هذا لا يهم عمر‏ﷺلأنه لا يجامل أحدًا على حساب شرع الله، ولو كان ابنه القاتل لاقتصَّ منه.

قال الرجل: يا أمير المؤمنين، أسألك بالذي رفع السماء بلا عمد أن تتركني ليلة؛ لأذهب إلى زوجتي وأطفالي في البادية، فأُخبِرُهم بأنك سوف تقتلني ثم أعود إليك، والله ليس لهم عائلٌ إلا الله ثم أنا، قال عمر: مَن يكفلك أن تذهب إلى البادية ثم تعود إليَّ ؟ فسكت الناس جميعًا؛ إنهم لا يعرفون اسمه ولا داره ولا قبيلته، فكيف يكفلونه ؟ وهي كفالة ليست على مائة دينار، ولا على عقَّار، ولا على ناقة، إنها كفالة على الرقبة أن تُقطع بالسيف.

فسكت الناس وعمر مُتأثر؛ لأنه وقع في حيرة، هل يقدم فيقتل هذا الرجل وأطفاله يموتون جوعًا هناك؟ أو يتركه فيذهب بلا كفالة فيضيع دم المقتول؟ وسكت الناس ونكَّس عمر رأسه والتفت إلى الشابَّين: أتعفوان عنه؟ قالا: لا، مَن قتل أبانا لا بد أن يُقتل يا أمير المؤمنين، قال عمر: مَن يكفل هذا أيها الناس؟ فقام أبو ذر الغفاريّ بشَيْبته، وقال: يا أمير المؤمنين، أنا أكفله، قال عمر: هو قَتْل،

قال: ولو كان قاتلاً! قال: أتعرفه؟ قال: ما أعرفه، قال: كيف تكفله؟ قال: رأيت فيه سِمات المؤمنين فعلمت أنه لا يكذب، وسَيَفِي بعهده إن شاء الله، قال عمر: يا أبا ذر، أتظن أنه لو تأخَّر بعد ثلاث أني تاركك؟ قال: الله المستعان يا أمير المؤمنين، فذهب الرجل وأعطاه عمر ثلاث ليالٍ، يُهيِّئ فيها نفسه، ويُودع أطفاله وأهله، وينظر في أمرهم بعده ثم يأتي ليُقْتَص منه؛ لأنه قتل، وبعد ثلاث ليالٍ لم ينسَ عمر الموعد، وفي العصر نادى في المدينة: الصلاة جامعة، فجاء الشابَّان، واجتمع الناس، وأتى أبو ذر وجلس أمام عمر، قال عمر: أين الرجل؟ قال: ما أدري يا أمير المؤمنين! وتلفَّت أبو ذر إلى الشمس، وكأنها تمرُّ سريعة على غير عادتها، وقبل الغروب بلحظات، إذا بالرجل يأتي، فكبَّر عمر وكبَّر المسلمون معه، فقال عمر: أيها الرجل أما إنك لو بقيت في باديتك ما شعرنا بك وما عرفنا مكانك.

قال: يا أمير المؤمنين، والله ما عليَّ منك ولكن عليَّ من الذي يعلم السرَّ وأخفى، ها أنا يا أمير المؤمنين، تركت أطفالي كفراخ الطير لا ماء ولا شجر في البادية، وجئتُ لأُقتل، وخشيت أن يُقال لقد ذهب الوفاء بالعهد من الناس، فسأل عمر بن الخطاب أبا ذر: لماذا ضمنته؟ فقال أبو ذر: خشيت أن يُقال: لقد ذهب الخير من الناس، فوقف عمر وقال للشابَّين: ماذا تَرَيَان؟ قالا وهما يبكيان: عفونا عنه يا أمير المؤمنين لصدقه ووفائه بالعهد، وقالوا: نخشى أن يُقال: لقد ذهب العفو من الناس، قال عمر: الله أكبر، ودموعه تسيل على لحيته.

هل تمثلت معي أهمية العهد في ديننا والوفاء به؟ فلا تكن غَازِلاً تارة ناكثا أخرى في معامتك مع الغير، تنال درجة الصديقين، ولا تنقض عهدك مع الله الذي خلقك وأحاطك بالنعم واستحظر قوله تعالى دائما: ﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً(34) ﴾سورة الإسراء، وقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(152) ﴾سورة الأنعام، تخرج من دنياك بسلام.

۞۞۞

﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ(112) ﴾سورة النحل

المعنى:

هذا مثل ضربه الله لأهل مكة وغيرهم، بقوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة فعصوا وتمردوا، فبدل الله نعمتهم بنقمةوكان أهلها في أمن واستقرار، وسعادة ونعيم، تأتيها الخيرات والأرزاق، بسعة وكثرة من كل الجهات، فلم يشكروا الله على ما أتاهم من خير، وما وهبهم من رزق فسلبهم الله نعمة الأمن والاطمئنان، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان، بسبب كفرهم ومعاصيهم، قال الرازي: وهذا مثل أهل مكة، لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخِصب ثم

أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة، وهو محمد ﷺ، فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين، حتى أكلوا الجيف والعظام.

اللغة:

- [بِأَنْعُمِ] جمع نعمة كالأشد جمع الشدة

البلاغة:

تضمنت الآية من صنوف البيان والبديع ما يلي:

1 - الاستعارة المكنية﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾شبه ذلك اللِّباس من حيث الكراهية بالطعم المرِّ البشع، وحذف المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو الاذاقة على طريق الاستعارة المكنية.

يذكر النسفي في مدارك التنزيل وحقائق التأويل:

جعل القرية التي هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا، فأنزل الله بهم نقمته، فيجوز أن يُراد قرية مقدرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة إنذارا من مثل عاقبتها، والأمن المشار إليه في الآية هو الأمن من القتل والسبي أما الإطمئنان فهي لا يزعجها خوف، لأن الطمأنينة مع الأمن والإنزعاج والقلق مع الخوف، وكان رزقها واسعا يأتيها من كل بلد، فكفر أهلها بأنعم الله، جمع نعمة على ترك الإعتداد بالتاء، كدرع وأدرع، أو جمع نِعَمٍ كبؤس وأبؤس، والإذاقة

واللباس استعارتان والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ووجه صحة ذلك أن الإذاقة جارية عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرِّ والبشع، أما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس، فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف.[1]

أما ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة فيذهبون إلى أن القرية المضروب بها المثل، مكة كانت بهذه الصفة التي ذكر الله لأنها كانت لا تغزى ولا يغير عليها أحد، وكانت الأرزاق تجلب إليها، وأنعم الله عليها ببعثة رسوله، والمراد به الضمائر كلها أهل القرية، فكفروا بأنعم الله في ذلك وفي جملة الشرع والهداية، فأصابتهم السنون والخوف، وسرايا رسول الله ﷺ وغزواته، هذا إن كانت الآية مدنية وإن كانت مكية فجوع السنين وخوف العذاب من الله بحسب التكذيب.

قال القاضي أبو محمد: وإن كانت هي التي ضربت مثلا فإنما ضربت لغيرها مما يأتي بعدها ليحذر أن يقع فيما وقعت هي فيه، وحكى الطبري عن حفصة أم المؤمنين أنها كانت تسأل في وقت حصر عثمان رضي الله عنه ما صنع الناس وهي

---

1) مدارك التنزيل وحقائق التأويل – النسفي – ص 599

صادرة من الحج من مكة، فقيل لها قتل فقالت: والذي نفسي بيده، إنها القرية التي تعني المدينة التي قال الله فيها، (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ) الآية.

يواصل القاضي أبو محمد قوله: فأدخل الطبري هذا على أن حفصة قالت: إن الآية نزلت في المدينة وإنها هي التي ضربت مثلا، والأمر عندي ليس كذلك وإنما أرادت أن المدينة قد حصلت في محذور المسِّ وحَلَّ بها ما حَلَّ بالتي جعلت مثلا، وكذلك يتوجه عندي في الآية أنها قصد بها قرية غير معينة، جعلت مثلا لمكة على التحذير لأهلها ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة.

(رَغَدٗا) نصب على الحال و(بِأَنۡعُمِ) جمع نعمة كشدة وأشد كذا قال سيبويه وقال قرطب (أنعم) جمع نِعم وهي بمعنى التنعيم، يقال هذه أيام طُعم ونُعم.[1]

فائدة:

قرأ الجمهور: (وَٱلۡخَوۡفِ) عطفا على (ٱلۡجُوعِ) وقرأ أبو عمرو: بخلاف عنه (والخوْفَ) عطفا على قوله (لِبَاسَ)، وفي مصحف أُبَيّْ بن عكب (لِبَاسَ الخَوْفِ و ٱلۡجُوعِ)، وقرأ ابن مسعود (فَأَذَاقَهَاٱللَّهُ الخَوْفَ وَالجُوعَ) ولا يذكر لباس.

نصيحة:

قمت بإحصاء لفظ (قرية) في القرآن الكريم فوجدت 33 موضعا ذكرالله فيه هذا اللفظ، وتعميما للفائدة سأنقلها مرتبة حسب ورودها في القرآن الكريم

1) المحرر الوجيز – ابن عطية – ص 426

لنخرج بملاحظات تكون لنا نبراساً يَسْتَضِيءُ به أهل القرى (أي أهل كل بلد مهما كبر أو صغر).

1- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ(58) ﴾سورة البقرة

2- ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(259) ﴾سورة البقرة

3- ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا(75) ﴾سورة النساء

4- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(123) ﴾سورة الأنعام

5- ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ(4) ﴾سورة الأعراف

6- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ(94) ﴾سورة الأعراف

7- ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ(161) ﴾سورة الأعراف

8- ﴿واَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(163) ﴾سورة الأعراف

9- ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(98) ﴾سورة يونس

10- ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(82) ﴾سورة يوسف

11- ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ(4) ﴾سورة الحجر

12- ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ(112) ﴾سورة النحل

13- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا(16) ﴾سورة الإسراء

14- ﴿وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(58) ﴾سورة الإسراء

15- ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا(77) ﴾سورة الكهف

16- ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ(6) ﴾سورة الأنبياء

17- ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ(11) ﴾سورة الأنبياء

18- ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ(74) ﴾سورة الأنبياء

19- ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ(95) ﴾سورة الأنبياء

20- ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ(45) ﴾سورة الحج

21- ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ(48) ﴾سورة الحج

22- ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا(40) ﴾سورة الفرقان

23- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا(51) ﴾سورة الفرقان

24- ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ(208) ﴾سورة الشعراء

25- ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(34) ﴾سورة النمل

26- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ(58) ﴾سورة القصص

27- ﴿وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ(31) ﴾سورة العنكبوت

28- ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(34) ﴾سورة العنكبوت

29- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(34) ﴾سورة سبأ

30- ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ(13) ﴾سورة يس

31- ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ(23) ﴾سورة الزخرف

32- ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ(13) ﴾سورة محمد

33- ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا(8) ﴾سورة الطلاق

وإذا أضفنا مشتقاتها وصل العدد إلى 55 موضعا ولكي نحيط بالمفهوم جيدا نحاول تتبعه فيما يلي:

لفظ (القرية) في العرف المعاصر هو اللفظ المقابل للفظ (المدينة)، ولكل منهما دلالة تغاير الآخر قليلاً أو كثيراً، فإذا كان أولهما يشير إلى الفقر والتخلف من حيث الجملة، فإن الثاني يدل على الغنى والتحضر من حيث الجملة أيضاً. بيد أن لفظ (القرية) في القرآن الكريم له من الدلالة غير الدلالة المستعملة في عُرفنا المعاصر، نقف عليها بعد أن نستجلي معنى (القرية) في لغة العرب.

تذكر معاجم العربية أن لفظ (قري) يدل على جمع واجتماع، من ذلك (القرية)، سميت قرية لاجتماع الناس فيها. وكما أن لفظ (القرية) هو اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس، فهو أيضاً اسم للناس جميعاً، ويستعمل في كل واحد منهما. ويقولون: قريتُ الماء في المقراة: جمعته، وذلك الماء المجموع قري. وجمع (القرية): قرى. والمقراة: الجفنة (وعاء الطعام)، سميت لاجتماع الضيف عليها، أو لما جُمع فيها من طعام. وقرى الضيف يقريه: ضيَّفه.

ولفظ (القرية) ورد في القرآن الكريم في ستة وخمسين موضعاً، جاء في جميعها بصيغة الاسم، ولم يأتِ بصيغة الفعل. وجاء هذا الاسم في أكثر مواضعه بصيغة المفرد، نحو قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾النساء: 75،

وجاء في مواضع أقل بصيغة الجمع، من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الأنعام: 92).

ولفظ (القرية) ورد في القرآن الكريم على عدة معان، نسوقها على النحو التالي:

(القرية) ويراد بها مجتمع الناس في أي موضع، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا (58) ﴾ سورة الإسراء، قال مجاهد: كل قرية في الأرض سيصيبها بعض هذا. ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ (48)﴾ سورة الحج .

(القرية) ويراد بها (مكة المكرمة)، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (112) ﴾ سورة النحل، ونحو هذا قوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13) ﴾ سورة محمد، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (75)﴾ سورة النساء، فالمراد بـ ﴿القرية﴾ في هذه الآيات ونحوها مكة المكرمة.

(القرية) ويراد بها (مكة والطائف)، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) ﴾ سورة الزخرف، فقد قال المشركون بالله من قريش لما جاءهم القرآن من عند الله: هذا سحر، فإن كان حقاً، فهلا نزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين مكة أو الطائف. وليس في القرآن لفظ (القرية) على هذا المعنى غير هذه الآية.

(القرية) ويراد بها (أنطاكية)، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (13) ﴾ سورة يس، روى الطبري عن قتادة، قال: ذُكر لنا أن عيسى ابن مريم بعث رجلين من الحواريين إلى أنطاكية -مدينة بالروم، لعلها اليوم في تركيا- فكذبوهما.

(القرية) ويراد بها (بيت المقدس)، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (58) ﴾ سورة البقرة، روى عن قتادة وغيره، قال: بيت المقدس. وعلى هذا قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (161) ﴾ سورة الأعراف، قال الطبري: هي قرية بيت المقدس.

(القرية) ويراد بها (سَدُوم)، مدينة من مدائن قوم لوط، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (34) ﴾ سورة

العنكبوت، ذكر الطبري أن المراد بـ (القرية) هنا قرية (سَدُوم)، وهي من قرى فلسطين اليوم.

(القرية) ويراد بها (نِيْنَوَى)، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ(98) ﴾سورة يونس، قال قتادة: ذُكِرَ لنا أن قوم يونس كانوا بـ (نَيْنَوَى) أرض الموصل.

(القرية) ويراد بها (الأيلة)، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77)﴾سورة الكهف، روى الطبري عن ابن سيرين أنها الأيلة. ونحو ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (163) ﴾سورة الأعراف، روى عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: هي قرية يقال لها: أيلة (تقع في أقصى جنوب فلسطين)، بين مَدْيَن والطُّور. وهذا قول في المراد بـ (القرية) في هذه الآية.

(القرية) ويراد بها (مصر)، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (82) ﴾ سورة يوسف، قال الطبري: هي مصر.

وعلى ضوء ما تقدم، يمكن القول: إن لفظ ﴿القرية﴾ أكثر ما ورد في القرآن الكريم على المكان الذي يجتمع فيه الناس، وهذا ما يدل عليه المعنى اللغوي

أساساً، أما المعاني الأخرى التي حُمل عليها معنى ﴿القرية﴾ في القرآن، فقد أرشدت إليها آثار عن السلف، عينت المراد منها.

مهما ذكر من معاني ودلالات للفظ القرية إلا أن المتتبع لتطور الإنسان منذ العصور الغابرة، يستنتج أنه مر بمراحل متتابعة ومتغيرة حتى وصلت المدينة المعاصرة لما عليه الآن، تقدم في العمران بشتى صوره، تقدم في العلاقات الإجتماعية والثقافية والسياسية والإقتصادية، وأصبح لكل تجمع من البشر انتماءً حضارياً، يقوم على جغرافية الأرض وتاريخها ويحكمهم تنوع في أنماط الحكم، وأصبح اليوم مقياس تقدم الأمم بما يسودها من نظم وثقافات وعادات، وما تملكه من أسباب القوة الإقتصادية التي تستطيع بها السيطرة على الأمم الأخرى.

في مقابل هذا التطور، حدث تَقَهْقُر في المبادئ التي أسست عليها هذه الحضارات: الدِّين، الأخلاق، العُرف، العلم...إلخ، ففي الدِّين تزعزع ركن الإعتقاد، وفي الأخلاق هُدِّم بناء القيم الأخلاقية الحميدة واستبدلت بالخبيثة، وفي العرف تناسوا وضيعوا ميراثهم من آبائهم وأجدادهم وكان موافقا لدينهم، وفي العلم سيطرت عليهم الأفكار التي شوشت عليهم سلوكهم وباسمه انتهكت المحارم وسفكت الدماء وبيعت الضمائر لشيطان المعرفة المادية، فقامت تجمعات بشرية على إبادة تجمعات أخرى باسم الحضارة وإعادة بنائها.

في كل هذا الخضم، ظهرت صور للترف والبذخ والإسراف في استغلال النعم التي أغدقها منعمها عليهم بدون استثناء.

المثل الذي ضربه الله في كتابه، يذكرنا ويحذرنا أن النعم بيده وهو قادر على تغييرها وإذهابها كما أغدقها علينا، وأكبر هذه النعم: الأمن والطمأنية التي لا يقدر حقها إلا من فقدهما في حياته بسبب ابتعاده عن روح الوحي المنزل على رسوله ﷺ، هاتان النعمتان قد يتذوقها الأفراد كما تتذوقها الجماعات، واستبدالهما يكون دائما بسبب الكفر والجحود وهو ستر المنعم بغشاوة البطر وادعاء الحول والقوة مع تحقق الضعف والإفتقار لكلِّ البشر، واقرأ أن شئت قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِأُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ الله لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76)﴾ سورة القصص ،إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ الله عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(82)﴾سورة القصص

فما على الإنسان إلا أن يحذر مكر الله، فلا يغير نعمته بمقابلتها بالكفر، فإن الخاسر الأول والأخير هو الإنسان، وأحداث العالم اليوم مليئة بالصور الدَّالة على هذا التغيير لأنه سبحانه يقول: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ(182) ﴾سورة آل عمران بصيغة الجَمْع تارة وأنه سبحانه يقول: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ(10) ﴾سورة الحـج بصيغة المفْرَد، فأنت مفرد وجماعة في نفس الوقت، فكن شاكرا لأنعمه مؤديا حقها فيما أمرك منعمها عليك ولاتكن من الغافلين فيصيبك أو يصيبكم ما أصاب أهل القرى.

من سورة الكهف

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32)﴾سورة الكهف

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (45) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46)﴾سورة الكهف.

المعنى:

اضرب لهؤلاء الكفار هذا المثل، قال المفسرون: هما أخوان من بني إسرائيل، أحدهما مؤمن، والآخر كافر، ورثا مالا عن أبيهما، فاشترى الكافر بماله حديقتين، وأنفق المؤمن ماله في مرضاة الله، حتى نفد ماله، فعيره الكافر بفقره، فأهلك الله مال الكافر، وضرب هذا مثلا للمؤمن الذي يعمل بطاعة الله، والكافر الذي أبطرته النعمة.

جعلنا لأحدهما - وهو الكافر - بساتينِ من شجر العنب، مثمرين بأنواع العنب اللذيذ وأحطناهما بسياج من شجر النخيل وجعلنا وسط هذين البستانين زرعا، ويتفجر بينهما نهر، وإنه لمنظر بهيج، يصوره القرآن أروع تصوير، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الكرم، المحفوفتين بأشجار النخيل، تتوسطهما الزروع

وتتفجر بينهما الأنهار وكل واحدة من الحديقتين، أخرجت ثمرها يانعا في غاية الجودة والطيب، ولمينقص من شيئا، وجعلنا النهر يسير وسط الحديقتين وكان للكافر من جنتيه أنواع من الفواكه والثمار، قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهو يجادله ويخاصمه ويفتخر عليه ويتعالى: أنا أغنى منك وأشرف، وأكثر أنصارا وخدما، أخذ بيد المؤمن ودخل الحديقة يطوف به فيها، ويريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار، وهو ظالم لنفسه بالعُجب والكفر، قال: ما أعتقد أن تفنى هذه الحديقة أبدا وما أعتقد القيامة كائنة وحاصلة، أنكر فناء جنته، وأنكر البعث والنشور ولئن كان هناك بعث – على سبيل الفرض والتقدير كما تزعمُ – فسوف يعطيني الله خيرا من هذا وأفضل مرجعا وعاقبة، فكما أعطاني هذا في الدنيا، فسيعطينى في الآخرة لكرامتي عليه.

قال المؤمن الفقير وهو يراجع أخاه ويجادله: أجحدت الله الذي خلق أصلك من تراب، ثم من مني، ثم سوَّاك إنسانا سويا ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ، لكنْ أنا أعترف بوجود الله فهو ربي وخالقي لا أُشرك مع الله غيره، فهو المعبودُ وحده لا شريك له، فهلا حين دخلتَ حديقتك، وأُعجبت بما فيها من الأشجار والثمار، قلت: هذا من فضل الله، فما شاءَ الله كان وما لم يشأ لم يكن لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته، قال المؤمن للكافر أيضا: إن كنت ترى أنني افقر منك، وتعتز عليَّ بكثرة مالك وأولادك، فأني أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه، أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني جنةً خيراً من جنتك لإيماني به، ويسلب عنك نعمته لكفرك به ويخرب بستانك ويرسل عليها

آفة تجتاحها، أو صواعق من السماء تدمرها فتصبح الحديقة أرضاً ملساء، لا تثبت عليها قدم، جرداء لا نبات فيها ولا شجرأو يغور ماؤها في الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر، وحينئذ لا تستطيع طلبه، فضلا عن إعادته ورده ! ! وينتهي الحوار هنا وتكون المفاجأة المدهشة، فيتحقق رجاء المؤمن بزوال النعيم عن الكافر، وفجأة ينقلنا السياق من مشهد اللهجة والإزدهار، إلى مشهد البوار والدمار.

هلكتْ جنته بالكلية واستولى عليها الخراب والدمار، فى الزروع والثمارفأصبح يقلب كفيه ظهْراً لبطن، أسفا وحزنا على ماله الضائع وجهده الذاهب، قال القرطبي: أي يضرب إحدى يديه على الأخرى ندما، كما يفعل ذلك النادم وهي مهشمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران، فأصبحت خرابا يباباً ويتمنى أن لم يكن قد كفر النعمة، ندم حين لا ينفع الندم ولم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك وما كان بنفسه ممتنعا عن انتقام الله سبحانه، فلم تنفعه العشيرة والولد، حين اعتز وافتخر بهم، وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب.

في ذلك المقام وتلك الحال، تكون النصرة لله وحده، لا يقدر عليها أحد، فهو الولى الحق الذي ينصر أولياءه والله خير ثوابا في الدنيا والاخرة لمن آمن به، وهو خير عاقبة لمن اعتمد عليه ورجاه.

هذا مثل آخر للدنيا وبَهْرَجَهَا الخادع، يشبه مثل الجنتين في الفناء والزوال، والمعنى: اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها، بماء نزل من السماء، فخرج به النبات وافيا غزيرا حسنا، وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه فصار النبات متكسراً من اليبس، بعد أن يبسَ الزرعُ، تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال وكان الله قادرا على الإفناء والإحياء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الأموال والأولاد زينة هذه الحياة الفانية، ذاك مثلها وهذه زينتها، والكل إلى فناء وزوال، لا يغتر بها إلا الأحمق الجهول وأعمال الخير تبقى ثمرتها أبد الآباد، فهى خير ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله، قال ابن عباس: الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس، وعنه أيضا أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة وفي الحديث: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، من الباقيات الصالحات).

اللغة:

- [هشيما] الهشيم: اليابس المتكسر من النبات

البلاغة:

تضمنت الآيات الكريمة وجوها من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

1- التشبيه التمثيلي﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ ﴾لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، وكذلك يوجد التشبيه التمثيلي في﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾.

2- المبالغة بإطلاق المصدر على اسم الفاعل﴿ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا ﴾أي غائرا.

3- الكناية﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ ﴾كناية عن التحسر والندم، لأن النادم يضرب بيمينه على شماله.

تنبيه:

الجمهور على أن الباقيات الصالحات من الكلمات المأثور فضلها "سُبْحَان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، واللهُ أكْبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العَلِيِّ العظيم"، وقد ورد بذلك حديث تقدم ذكره، وروى الترمذي: (أن رسول الله ﷺ قال: لقيتُ إبراهيم ليلةَ أُسري بي فقال يا محمد: أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنَّة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: (سُبْحَان الله، والحمْدُ لله، ولا إله إلا الله والله أكْبر). [1]

يذكرابن عطية في المحرر الوجيز قوله: تأمل هذه الهيئة التي ذكر الله، فإن المرء لا يكاد يتخيل أجمل منها في مكاسب الناس: جَنَّتَا عنب أحاط بهما نخل، بينهما فسحة، هي مزرعة لجميع الحبوب، والماء الغيل يسقي جميع ذلك من النهر

1) صفوة التفاسير – علي الصابوني (ج 02)

الذي قد جمل هذا المنظر، وعظم النفع، وقرب الكد، وأغنى عن النواضج وغيرها.

نصيحة:

الإيمان والكفر يحددان سعادة وشقاوة الإنسان في دنياه وآخرته، فقلب المؤمن ينشرح حينما يعتقد أن له ربا موصوفا بكل صفات الكمال، له الأسماء الحسنى، هداه إلى صراطه المستقيم بمبعث الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لذا تراه في دنياه يعيش ممتثلا أوامر خالقهومجتنبا نواهيه، فيذيقه من ثمرات إيمانه أنه يمشي بين الناس على نور من ربه، واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ الله أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(22) ﴾سورة الزمر وذكر الله يتطلب خشيته وطاعته فيما أمر ونهى، فيشعر أنه في سعادة تامة لتيقنه بما أعده الله لأهل السعادة في الآخرة، واسمعه يقول لك: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ(108) ﴾سورة هود.

أما الكافر فيعيش في دنياه في شقاءٍ وضَنْكٍ نظرا لعدم دخول نور الإيمان قلبه ولو ظهرت عليه مظاهر المتنعم بنعم الدنيا الفانية، من مال أو بنين أو قصور أو حدائق أو بساتين، لأنه يعيش فيها فترة حياته ثم ينقلب على وجهه ليذوق العذاب في الآخرة بسبب كفره وعناده، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ

كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَالله سَرِيعُ الْحِسَابِ(39) ﴾سورة النــور واسمعه يقول أيضا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(8) ﴾سورة محمد.

حينما تتزين الحياة الدنيا للإنسان، يراها المؤمن والكافر، غَيْرَ أن المؤمن يرى حقيقتها بعين بصيرته التي تفتحت على نور الوحي، فيعيش فيها كالمسافر في طريق أتيحت له فرصة الإستظلال تحت ظل شجرة ثم ارتحل، واسمع رسول الله يبين لك حقيقتها بقوله: (مالي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال ـ أي نام ـ في ظل شجرة، في يوم صائف، ثم راح وتركها)، رواه الترمذي وأحمد وهو صحيح.

كثيراً هُمُ الذين يستشهدون بقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ولايكملون الآية، ذلكلحبهم المال والبنون فقط، مع العلم أن في هذا المثل جاء ذكرهما في معرض ضرب المثل لحقارة الدنيا، يقول ابن عطية في تفسيره: هذا لفظ الخبر، لكن معه قرينة الضِّعة للمال والبنين لأنه في المَثَلِ، فكأنه يقول في هذه: إنما المال والبنين زينة هذه الحياة المحَقَّرَة، فلا تتبعوها نفوسكم.[1]

قد يشترك المؤمن والكافر في امتلاك حطام الدنيا ويفوقه أحيانا، فتراهما متمتعان مٌتْرفَانِ فيها، غير أن صاحب الإيمان يتزود من دنياه إلى آخرته بكل عمل صالح فينفق المال فيما يرضي مولاه بعد اكتسابه من حلال، كأنه يضعه في يد

1) المحرر الوجيز – ابن عطية – ص 520

خالقه يربيه له لليوم الآخر أضعافا مضاعفة، فيواسي به المحتاج ويسدُّ به رمق الجائعين ويردُّ به كيد الأعداء مجاهدا بماله على حضيرة الإسلام، فهذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)رواه أحمد.

حَقِّقْ إيمانك بربك الذي رزقك فأغناك من خزائنه التي لا تنفد، وجعلك وكيله على الفقير، فجعل له حقا معلوما تقدمه له طواعية وتقربا ليقيك شحَّ نفسك، فلا تبخل، واعلم أنه يحاسبك عن كل درهم أو دينار من أين اكتسبته وفيما انفقته، فكن صاحب يد سخية متحرياً الحلال لكي تنال فضله وتعيش في جنتك الآن وغدا، كل ذلك نابع من إيمانك اليقيني أنه ذكرك بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(39) ﴾سورة سبأ.

أيُّها المؤمن الغني خذ بيد أخيك المؤمن الغني، واشْتَرِكا في إخراج أمة الإسلام من شِرَاكِ الفقر فيكون لكما فضل المجاهدين بأموالهم في سبيل الله.

من سورة الحج

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(74) ﴾سورة الحـج

المعنى:

يا معشر المشركين ضرب الله مثلا لما يعبد من دون الله، من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر، واعقلوا ما يقال لكم، إن هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها، لإن اجتمعت على ذلك، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة ؟ وعبادتها من دون الله ! قال القرطبي: وخصَّ الذباب لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، ولإستقذاره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره، لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأربابا مطاعين ؟ وهذا من أقوى الحجة وأوضحالبراهين، لو اختطف الذباب وسلب شيئا من الطيب، الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه، رغم ضعفه وحقارته، ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم، والمطلوب الذي هو الصنم، فكل منهما حقير وضعيف ((قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب، وقال السدي: الطالب العابد، والمطلوب الصنم نفسه، وهذا هو الراجح وهو الذي اخترناه))، ما عظموا الله حق تعظيمه، حيث جعلوا الأصنام – على حقارتها – شركاء للقوي العزيز، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾أي هو تعالى قادر لا يعجزه شيء، غالب لا يُغلب، فكيف يسوون بين القوي العزيز، والعاجز الحقير ؟ !.

اللغة:

- [يَسۡلُبۡهُمُ] سَلَبَ الشيء: اختطفه بسرعة
- [مَاقَدَرُواْ] ما عَظَّمُوا

البلاغة:

تضمنت الآية من أوجه البيان والبديع مايلي:

1- التمثيل الرائع﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا ﴾أي مثل الكفار في عبادتهم لغير الله، كمثل الأصنام التي لاتستطيع أن تخلق ذبابة واحدة، قال الزمخشري: سميت القصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان مثلا تشبيهاَ لها ببعض الأمثال البديعة.

لن تفيد تأكيد نفي المستقبل، وتأكيده هنا للدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل كأنه قال: محال أن يخلقوا، وتخصيص الذباب لمهانته وضعفه واستحقاره، وسمي ذبابا لأنه كلما ذب لاستقذاره آب لاستكباره و(وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ) لخلق الذباب، ومحله النصب على الحال، كأنه قيل: مستحيل منهم أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم جميعا لخلقه وتعاونهم عليه، وهذا من أبلغ ما أنزل في تجهيل قريش حيث وصفوا بالإلهية التي تقتضي الإقتدار على المقدورات كلها والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله ولو اجتمعوا لذلك، (شَيۡـًٔا) ثاني مفعولي يسلبهم (لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ): أي هذا الخلق الأقل والأذل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا

على أن يستخلصوه منه لم يقدروا، عن ابن عباس – رضي الله عنه – أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورءوسها بالعسل فإذا سلبه الذباب عجز الأصنام عن أخذه (ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ) أي الصنم يطلب ما سلب منه (وَٱلْمَطْلُوبُ) الذباب بما سلب، وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف، ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف فإن الذباب حيوان، وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب.[1]

يذكر ابن عطية في المحرر الوجيز أن الخطاب بقوله (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ) هو خطاب عام يعمُّ كل الناس، فمتى نظرت أحدا في عبادة الأوثان توجه له الخطاب.[2]

نصيحة:

قرأت كتابا تحت عنوان "مبادىء أولية في الفلسفة - جورج بوليتزر"نقلته إلى العربية وقدمت له د. فهمية شرف الدين دبلوم دراسات عليا في الفلسفة، ويدور موضوعه كما جاء في العنوان حول بعض المبادئ الأولية في الفلسفة، والتي يجب على الدارس معرفتها، مثلا: (المثالية – المادية...الخ)، وبعدما انهيت مطالعته جاءتني فكرة تقديم النصيحة وربطها بما جاء في هذا المثل في سورة الحج.

1) مدارك التنزيل وحقائق التأويل – النسفي – المجلد (3)، ص (739)

2) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية – ج (4)، ص (133-134)

الفلسفة جهد فكري إنساني عرفته البشرية محاولة الإجابة عن بعض التساؤلات الجوهرية التي كانت تراود الإنسان في فترة من تاريخه بمعزل عن الوحي، وهذه التساؤلات المحيرة يدور موضوعها حول، الإنسان، العالم، الله.

كان لهذا الجهد البشري أعلاما من الغرب والشرق تدرس نظرياتهم إلى اليوم في الجامعات والمعاهد، وأسس لها مدارس فكرية قامت على أساسها دولا وسياسات إقتصادية ما تزال تفعل فعلتها في العالم المعاصر.

والحوصلة أن هذه المبادئ قامت بمعزل عن الوحي الإلاهي إن لم نقل أن بعضها يلغيه تماما بحجة العلم والتطورالعلمي الذي يرى الإنسان نتاجه المادي في شكل ما يسميه الإنسان المعاصر: الحضارة الغربية بشقيها الغربي والشرقي، والتي أدخلت هذا الإنسان في متاهات ومشاكل لم يجد لها حلولا حتى من طرف أكبر المفكرين.

الفكر الجاهلي عند العرب قبل نزول الوحي كان يتصور أن الكون له خالق أسمه: الله، ولكن لسذاجة عقولهم جعلوا له شركاء صنعوهم من المواد التي كانت في متناولهم، كالخشب والحجر وغيرها، يقدمون لها القرابين ويعبدونها معتقدين أنها هي التي تقربهم إلى معبودهم: الله، ولكن عندما نزل الوحي بلسانهم، قدم لهم مجموعة تساؤلات ليحرك فيهم الفكر ليستنتجوا الإجاباتالموصلة إلى الحقيقة والتي تقول: أن الإنسان خلقه الله بقدرته، وسخر له ما في البر والبحر تفضلا منه، لكي يفرده بالعبادة والخضوع له وحده، وبالتالي

يخلصه من التقرب لآلهة لا تنفع ولا تضر، واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿أَلَا لله الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى إِنَّ الله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ الله لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ(3) ﴾سورة الزمر.

و قد دلهم على التبصر والتفكر فيما حولهم من مخلوقات ليصلوا إلى الإيمان بأن الله وحده القادر على الخلق والتصرف في ملكه كيف يشاء، واسمعه يقول لهم: ﴿هَذَا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(11) ﴾سورة لقمان.

فإذا كان الوحي الإلاهي في جانبه العقدي يقدم للإنسان الأدلة والبراهين التي لا يمكنه إنكارها أو رفضها بأي حجة، فإن المثل الذي ضربه الله في هذه السورة (الحج) يبقى قائما إلى يوم الدين، ويتحدى البشر في كل عصر، أن هذه الحشرةالمهانة التي كلماسقطت على شيء إلا وأخذت منه نصيبها وطارت ولا يستطيع أي مدعي للقوة أو الحيلة أن يسترده منها، ولو كان هذا الإله هو العلم تارة والتطور تارة أخرى أوالحضارة إلى غيرها من المسميات، فإن المعبود الحق الذي خلقها وخلق الإنسان والكون هو وحده القادر على ذاك.

لا يغرنك العصر ودعاة الفلسفات والمتاهات الفكرية لتعتقد أنها أصبحت شركاء لله في ملكه، فهذه إخفاقات العلم والحضارة تقف عاجزة عن حل أدنى

المشكلات الإنسانية، في الصحة أو النفس أو الإجتماع أوالإقتصاد حتى وأن تظاهرت على أنها قادرة على ذلك والواقع خير دليل.

فإذا أردت النجاة فما عليك إلا أن تُقَدِّرَ اللهَ حق قَدْرِه، ولك في الذبابة العبرة فلا تستهين بمخلوقات الله، واخلص العبادة له وحده يقيك شر الملحدين والمتعصرنين الذين غرتهم الحياة الدنيا وما آتاهم الله من علم واقرأ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى(30)﴾سورة النجم.

من سورة النور

﴿الله نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ الله الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(35)﴾سورة النــور

المناسبة:

لما وصف تعالى نفسه بأنه أنزل آيات مبينات، وأقام دلائل واضحات على وحدانيته، واختصاصه بتشريع الأحكام التي بها سعادة المجتمع، عقبه بذكر مثلين: أحدهما في بيان أن دلائل الوحدانية والإيمان في غاية الظهور، والثاني: في

بيان أن أديان الكفار في نهاية الظلمة والخفاء، وبالمقارنة بين المثلين، يتضح الصبح لذي عينين.

المعنى:

الله جل وعلا نور السموات والأرض، أنار السموات بالكواكب المضيئة، والأرض بالشرائع والأحكام، وبعثة الرسل الكرام، قال الطبري: أي هادي أهل السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبِهُدَاهُ من حيرة الضلالة يعتصمون وقال القرطبي: النور عند العرب: الضوء المدرك بالبصر، واستعمل مجازا في المعاني فيقال كلام له نور، قال الشاعر:

نسب كأن عليه من شمس الضحى   نورا ومن فلق الصباح عمودا

والناس يقولون: فلان نور البلد، وشمس العصر وقمره، فيجوز أن يقال: الله نور على جهة المدح، لأن جميع الأشياء منه ابتداؤها، وعنه صدورها، وبقدرته استقامت أمورها، وقال ابن عطاء الله: "الكون كله ظلمة، أناره ظهور الحق فيه، إذ لولا وجود الله ما وجد شيء من العالم" وفي الحديث الشريف: (اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن) وقال ابن مسعود: "ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه" وقال ابن القيم: سمى الله سبحانه نفسه نورا، وجعل كتابه نورا، ورسوله نورا، واحتجب عن خلقه بالنور، وقد فسرت الآية بأنه منور السموات والأرض، وهادي أهل السموات والأرض، وما قاله ابن مسعود أقرب الى تفسير الآية من

قول من فسرها بأنه هادي أهل السموات والأرض، وأما من فسرها بأنه منور السموات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود: ((أقول: في هذا الضمير ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾للمفسرين فيه قولان أحدهما: أنه عائد إلى الله عزّ وجلّ، أي مثل هدى الله، ونور الله، في قلب عبده المؤمن، كمصباح في فتحة حائط، ليكون أجمع للضوء، وهذا قول ابن عباس، والثاني: أن الضمير عائد إلى المؤمن، أى مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمصباح وهاج فى فتحة حائط، يشعل هذا المصباح بزيت الزيتون الصافي، فهو مثل ضربه الله للمؤمن بدليل قوله تعالى فى نهاية الآية الكريمة: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

أي مثل نور الله سبحانه في قلب عبده المؤمن ككوة في الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء، وضع فيها سراج ثاقب ساطع، قال في التسهيل: المعنى صفة نور الله في وضوحه، كصفة مشكاة - أي فتحة - فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر، من الإضاءة والإنارة، وإنما شبه بالمشكاة - وإن كان نور الله أعظم - لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار، ضرب لهم به المثل.

أي في قنديل من الزجاج الصافي تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها يشعل ذلك المصباح من زيت شجرة مباركة، هي من شجر الزيتون الذي خصه الله بمنافع عديدة، ليست في جهة الشرق، ولا في جهة الغرب، وإنما هي في صحراء منكشفة، تصيبها الشمس طول النهار، لتكون ثمرتها أنضج، وزيتها أصفى، قال ابن عباس: هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر، ولا جبل، ولا كهف، ولا يواريها شيء وهو أجود لزيتها.

﴿غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾مبالغة في وصف صفاء الزيت وحسنه وجودته، أي يكاد زيت هذه الزيتونة، يضيء من صفائه وحسن ضيائه، ولو لم تمسه نار، فكيف إذا مسته النار ؟

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾أي نور فوق نور، فقد اجتمع (نور السراج)، و(حسن الزجاجة)، و(صفاء الزيت)، فاكتمل النور الممثل به، ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾أي يوفق الله لاتباع نوره – وهو القرآن – من يشاء من عباده ويبين لهم الأمثال تقريبا لأفهامهم، ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الأسرار والحكم وهو سبحانه واسع العلم، لا يخفى عليه شيء من أمر الخلق، وفيه وعد ووعيد.

اللغة:

- [كَمِشْكَوٰةٍ] المشكاة: الكوة في الحائط غير النافذة، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء.
- [دُرِّيٌّ] متلألىء وقاد، يشبه الدر في صفائه ولمعانه.

البلاغة:

تضمنت الآيات الكريمة وجوها من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

1 –إطلاق المصدر على اسم الفاعل للمبالغة﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ بمعنى منور لكل شيء بحيث كأنه عين نوره، قال الشريف الرضى: وفي الآية استعارة – على

تفسير بعض العلماء - والمراد عندهم أنه هادي أهل السموات والأرض بصوادع برهانه، ونواصع بيانه، كما يهتدى بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة.

2 - التشبيه التمثيلي ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ شبه نور الله الذي وضعه في قلب عبده المؤمن، بالمصباح الوهاج في كوة داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في الصفاء والحسن إلخ، سمى تمثيليا لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، وهو من روائع التشبيه.

قال القاضي أبو محمد[1] في المحرر الوجيز، أن الضمير في قوله (نُورِهِۦ) عائد على (الله)، ثم اختلفت هذه الفرقة في المراد بـ (النور) الذي أضيف إلى الله تعالى إضافة خلق إلى خالق كما تقول سماء الله وناقة الله، فقال بعضها هو محمد ﷺ، وقال بعضها هو المؤمن، وقال بعضها هو الإ والقرآن، وهذه الأقوال متجهة مطرد معها المعنى فكأن اليهود لما قالوا (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) بمعنى الضوء، قيل لهم ليس كذلك وإنما هو نور فإنه قوام كل شيء وهاديه مثل نوره في محمدﷺأو في القرآن والإيمان (كَمِشْكَوٰةٍ) وهي الكوة غير النافذة فيها القنديل ونحوه.

و هذه الأقوال فيها مقابلة جزء من المثال لجزء من الممثل، فعلى قول من قال الممثل به محمدﷺ، وهو كعب الحبر، فرسول اللهﷺ، هو (المِشْكَاة) أو صدره، و(ٱلْمِصْبَاحُ) هو النبوءة وما ياصل بها من عمله وهداه، و(ٱلزُّجَاجَةُ) قلبه و(شَجَرَةٍ

1) عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن الـمُحاربيّ الأندلسي، المشهور: بابن عطيّة الأندلسي. وكتابه هو كتابه المشهور المطبوع باسم: المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.

مُّبَٰرَكَةٍ) هي الوحي والملائكة رسل إليه وسببه المتصل به، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي، وعلى قول من قال الممثل به هو المؤمن وهذا قول أبي بن كعب، فـ (المِشْكَاةُ) صدره و(المِصْبَاحُ) الإيمان والعلم، و(الزُّجَاجَةُ) قلبه، و(الشَّجَرَةُ) القرآن، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمنها، قال أبي بن كعب فهو على أحسن الحال يمشي في النالس كالرجل الحي يمشي بين قبور الأموات، ومن قال أن الممثل به القرآن والإيمان فتقدير الكلام (مَثَلُ نُورِهِۦ) الذي هو الإيمان في صدر المؤمن في قلبه (كَمِشْكَوٰةٍ)، أي كهذه الجملة وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه مالأوَّلَيْن، لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان، وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال لجزء من الممثل به بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين الناس، أي فمثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيه البشر، و(المِشْكَاةُ) الكُّوة في الحائط غير النافذة، قاله ابن جبير وسعيد بن عياض وجمهور المفسرين.[1]

نصيحة:

اعلم أيها المؤمن أنك تحمل شعلة من النور في قلبك، وقد أخبرك بذلك ليعلمك قدرك ومنزلتك، فدلك في الخطاب بالحاضر على ما أعد لك في الآجل واسمع قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ

1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية – ج 04، ص (183، 184)

وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ(23) ﴾سورة الرعد أو قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ(31) ﴾سورة النحل أو قوله أيضا: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(33) ﴾سورة فاطر، ومثَّل لك ولنفسك ببيْتٍ وقلبك بقنديلٍ ومعرفتك بسراجٍ، فمك باب ولسانك مفتاح والقنديل المعلق، فيه من اليقين دهنها ومن الزهد فتيله ومن الرضا زجاجها ومن العقل علائقها، فإذا فتحت فمك بإقرار ما في قلبك فاستضاء المصباح من كوته إلى عرش ربك الرحمن تعالى وتقدس، أصبح كلامك نورا وعملك نورا وظاهرك نورا وباطنك نورا ومدخلك في الأعمال نورا ومخرجك منها نورا ولا تنسى أن تنطق فتقول: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا(80) ﴾سورة الإسراء، يكون مصيرك يوم القيامة إلى النور.

و اعلم أن رحمته سبحانه وتعالى موصولة بك إذا أنت اتبعت نوره واسمعه يقول لك: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(43) ﴾سورة الأحزاب، فاجعل نوره يدخل قلبك وتستضيء به جوارحك فأنت محل رعايته لك، فبادر بسياسة رعيته فيك بما أمدك من حسن التصريف فيها والحكمة، تكن محققا خلافته فائزا بجنته لأن هذا: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(57) ﴾سورة الدخان

❁❁❁

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَالله سَرِيعُ الْحِسَابِ(39)﴾سورة النــور

المعنى:

أي إن أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا، وظنوها أعمالا صالحة نافعة لهم في الآخرة، كالسراب الذي يرى في الفلوات من ضوء الشمس وقت الظهيرة، حتى يظهر كأنه ماء يجري على وجه الأرض، يظنه العطشان من بعيد ماء جاريا حتى إذا وصل إليه لم ير ماء ولا شرابا، وإنما رأى سرابا، فعظمت حسرته، وزاد بلاؤه، ووجد الله له بالمرصاد، فوفاه جزاء عمله، فكذلك الكافر يحسب أن عمله ينفعه، حتى إذا مات وقدم على ربه، لم يجد شيئا من الأعمال، لأنها ذهبت هباء منثورا والله حسابه للخلق سريع، لا يحتاج إلى طول زمانه، لأنه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر.

اللغة:

- [سَرَابٍ] السراب: ما يتراءى للعين وسط النهار عند اشتداد الحرِّ يشبه الماء الجاري وليس بماء، سمى سرابا لأنه يسرب أي يجري كالماء، قال الشاعر:

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم   كلمـــع سراب بـــالفلا متـــألق

- [قِـيعَـةٍ] قال الفراء: هو جمع قاع مثل جار وجيرة، والقاع المنبسط المستوى من الأرض، وقال الزمخشري: القيعة بمعنى القاع وليس جمعا، وهكذا قال ابو عبيدة.

تضمنت الآيات الكريمة وجوها من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

1- التشبيه التمثيلي الرائع﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ ﴾ إلخ وهذا من روائع التشبيه وبدائع التمثيل.

جاء في تفسير النسفي- التنزيل وحقائق التأويل- أن الله سبحانه وتعالى شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه، ثم يخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة[1] وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق، وهم الذين قال فيهم:﴿ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ(3)﴾ سورة الغاشية، ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا(104)﴾ سورة الكهف، قيل نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية، كان يترهب ملتمسا للدين في الجاهلية فلما جاء الإسلام كفر.[2]

نصيحة:

يؤسس العمل في الدين الإسلامي على: الإيمان، الإقتداء، الصحة، الإخلاص.

---

1) الساهرة: هي الأرض سريعة النبات، كأنها سهرت بالنبات، ومنها الساهرة التي يحشر الناس عليها.

2) مدارك التنزيل وحقائق التأويل – للنسفي – ص (775)

هذه الركائز تؤدي إلى قبول العمل، فالمؤمن تكون له دوافع إيمانية تحركه لإخراج السلوك الظاهر، وهو ما يعبر عنه حديث (إنما الأعمال بالنيات)، فالنية المصاحبة للعمل يجب أن تكون نابعة من الإيمان بالله المشرع الحكيم، فيبتغي المرء الأجر منه وحده.

أي عمل يكون إما عبادة أو معاملة، فالعبادة تتطلب الإقتداء والصحة بما جاء به الشرع المنزل على رسول الله ﷺ في الظاهر والإخلاص في الباطن حتى يكون متقبلا واقرأ قوله الله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا الله لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(14) ﴾سورة طه أو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ۩(77) ﴾سورة الحج، أما المعاملة فتحكمها الشريعة بنصوص كانت ركائز للمجتهدين في الفقة الإسلامي لاستنباط الأحكام في شتى مجالات التعامل الإنساني، وهي التي تعرف بأحكام المعاملات.

المؤمن الصادق هو الذي لا يقدم على عمل حتى يتبن حكم الله فيه، بسؤال أهل العلم في الدين فيكون على بصيرة من أمره، ويتقرب إلى ربه بما تعبده به سواء في باب العبادات أو المعاملات.

أيها المؤمن الصادق، كن صاحب عزيمة ويقين في معاملة ربك، وصدق في معاملة خلقه، تسجل أعمالك في ميزان حسناتك وتكون بذلك: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ(55) ﴾سورة القمر، ولا تبطل أعمالك بسراب الشبهات وإدخال النيات الفاسدة فيه، التي تحبط العمل ولو كان ظاهره فيه تقرب إلى

مولاك، فتدخل دائرة الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا (23) ﴾سورة الفرقان واسمعه يقول لك: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ(5) ﴾سورة البينة، تخرج من السراب إلى العمل بالكتاب.

۞۞۞

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ(40) ﴾سورة النور

المعنى:

هذا المثل الثاني لضلال الكفار، والمعنى: أو مثلهم كظلمات متكاثفة، في بحر عميق لا يدرك قعره، يغطي ذلك البحر ويعلوه موج متلاطم بعضه فوق بعض ومن فوق ذلك الموج الثاني سحاب كثيف، فهي ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها فوق بعض، قال قتادة: الكافر يتقلب في خمس من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى نار جهنم.

﴿ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ ﴾ هذا من تتمة التمثيل، أي إذا أخرج ذلك الإنسان الواقع في هذه الظلمات يده، لم يقارب رؤيتها، فإن "ظلمة البحر"، و"ظلمة الموج"، و"ظلمة السحاب" قد تكاثفت حتى حجبت عنه رؤية أقرب شيء إليه، من شدة الظلمة، فكذلك شأن الكافر يتخبط في ظلمات الكفر

والضلال، ومن لم يهده الله للإيمان، وينور قلبه بنور الإسلام، لم يهتد أبد الدهر! ذكر تعالى لعمل الكافر مثالين: الأول لعمله الصالح، ومثل له بالسراب الخادع، والثاني لإعتقادهالسيىء ومثل له بالظلمات، المتراكمبعضها فوق بعض، ثم ختم الآية الكريمة ذلك الختام الرائع بقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾مقابل قوله في المؤمن﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾فكان هذا التمثيل والبيان في غاية الحسن والجمال، فلله ما أروع تعبير القرآن!.

اللغة:

- [لُّجِّيٍّ] اللجى: الذي لا يدرك قعره لعمقه، واللجة معظم الماء، والجمع لجج، وإلْتَجَّ البحر: تلاطمت أمواجه.

البلاغة:

تضمنت الآيات الكريمة وجوها من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

1 – التشبيه التمثيلي الرائع قيقوله: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾وهذا من روائع التشبيه وبدائع التمثيل.

فائدة:

﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾:لفظ يقتضي مبالغة الظلمة، واختلف الناس في هذا اللفظ، هل يقتضي أن الرجل المقدر في هذه الأحوال وأخرج يده رأى يده ولم يرها البتة؟فقالت فرقة: لم يرها جملة وذلك أن (كَادَ) معناها قارب فكأنه قال:

(إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ) لم يقارب رؤيتها، وهذا يقتضي نفي الرؤية جملة، وقالت فرقة بل رآها بعد عسر وشدَّة وكاد أن لا يراها، ووجه ذلك أن (كَادَ) إذا صحبها حرف نفي وجب الفعل الذي بعدها وإذا لم يصحبها انتفى الفعل، وهذا لازم متى كان النفي بعد (كَادَ) داخلا على الفعل الذي بعدها، فإذا كان حرف النفي مع (كَادَ) فالأمر محتمل مرة يوجب الفعل ومرة ينفيه مثل قوله تعالى:﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ (71) ﴾ سورة البقرة ، نفي مع كاد تضمن وجوب الذَّبح، وقوله: ﴿ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ ﴾ نفي مع كاد يتضمن أحد التأويلين، نفي الرؤية ولهذا ونحوه قال سيبويه رحمه الله: إن أفعال المقاربة لها نحو آخر بمعنى أنها دقيقة التصرف.[1]

نصيحة:

يفرق المرء بين الظلمة والنور بواسطة حاسة البصر، والناس في هذا الأمر سواسية، لأنهم يتمتعون بالإبصار ورؤية الأجسام المحيطة بهم في كل مرة أشرق ضوء النهار، ونظرا لعموميتها فلا يلتفت إليها أحد إلا مَنْ بدأ نقصان الإبصار لديه أو فقده كله ودخل عالم الظلام، هذا في المحسوسات، أما في المعنويات فلا يستطيع المرء تمييز ذلك إلا بضرب المثال.

في المثل الذي ضربه الله لنا، صورة واضحة، فكفران المنعم ونكران وجوده من أعظم الظلمات التي لا يمكننا فهم خطورتها إلا حينما نتصور ظلمات ثلاثة محيطة بهذا الرجل: ظلمة البحر ومعلوم أن ضوء الشمس يصل فيه إلى أعماق

1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية (ص188)

معينة ثم يختفي، فكلما زاد العمق أنعدم الضوء وأصبح ظلمة حالكة، تنعدم فيها كل صور الحياة، لحكمة أرادها الله، فالأمواج المتراكمة فوقه تزيده ظلاما، وفوق هذا الظلام ظلمة السحاب، والنتيجة أنه لا يرى النور مع أن مصدره الشمس التي تشرق كل يوم على الأرض وبحارها وأجوائها وسحابها، حتى إذا أخرج يده لا يراها مع أنه فاتحا عينيه.

قلبك بحر يتموج، فاجعل الإيمان اليقيني ينوره ليَعُجَّ[1] بكل أصناف الحياة ويعمر لينتج سحابا يصعد فوق سمائك يحمل الغيث النافع لينزل على أرضك الظمآنة فيحييها بعد موتها فتخرج من كل أنواع النباتات المثمرة في صورة أعمال صالحة، يراها الناس فيتنعمون بصلاحها، وتمدُّ يدك في ضوء الشمس لتقول: لقد وفقني الله لرؤتها بنوره السَّرْمَدِي الذي أنار الكون وما فيه، وجعل لي من فضله نورا فاتبعته على بصيرةٍ واقتداءٍ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

من سورة العنكبوت

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43) ﴾سورة العنكبوت.

---

[1] عجَّ يعجُّ ويعجُّ عجًا وعجيجًا: رفع صوته وصاح وقيده في التهذيب فقال بالدعاء والاستغاثة (لسان العرب)

المعنى:

مثل الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها، فياعتمادهم عليها ورجائهم نفعها، كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتا، لا يغني عنها في حرٍّ ولا بردٍّ، ولا مطر ولا اذى، قالالقرطبي: هذا مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا، وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت، لتفاهته وحقارته، لو كانوا يعلمونأن هذا مثلهم ما عبدوها، هو تعالى العالم بما عبدوه من دونه، لا يخفى عليه ذلك، وسيجازيهم على كفرهم، وهو جل وعلا العزيز في ملكه، الحكيم فى صنعهوتلك الأمثال نوضحها للناس في القرآن، لتقريبها إلى أذهانهوما يدركها ويفهمها إلا العالمون الراسخون، الذين يعقلون عن الله عزّ وجلّ مراده.

اللغة:

- [أَوۡهَنَ] أضعف، والوهن: الضعف

البلاغة:

تضمنت الآيات وجوها من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

التشبيه التمثيلي ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾شبه الله الكافرين في عبادتهم للأصنام، بالعنكبوت في بنائها بيتا

ضعينا واهيا، يتهاوى من هبة نسيم أو من نفخة فمّ، وسمّي تمثيليا لأن وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد.

يذكر النسفي في مدارك التنزيل وحقائق التأويل:

يعني مثل من أشرك بالله الأوثان في الضعف وسوء الإختيار، كمثل العنكبوت فيما تتخذه أنفسها من بيت، فإن ذلك بيت لا يدفع عنها الحر والبرد ولا يقي ما تقي البيوت، فكذلك الأوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة، وجعل حاتم[1] : اتخذت حالا، وقيل معنى الآية، مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله: مثل عنكبوت تتخذ بيتا بالإضافة إلى رجل يبني بيتا بالآجر والجص، أو ينحته من الصخر، وكما أن أوهن البيوت إذا اسْتَقْرَيْتَهَا بيتًا بيتًا، بيت العنكبوت، كذلك أضعف الإديان إدا استقريتها دينا دينا، عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون كمثل العنكبوت.[2]

(وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ)، الأمثال نعت والخبر (نَضْرِبُهَا) نبينها (لِلنَّاسِ)، كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون: إن ربَّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك، فلذلك قال (وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ) به وبأسمائه وصفاته، أي لا يعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها إلا هم، لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المستورة حتى تبرزها وتصورها للأفهام كما صور هذا

1) هو حاتم بن إسحاق بن حاتم، أبو قبيصة، الموصلي، الضرير، قرأ على عامر بن عمر (غاية النهاية – 1/ 1 –2)

2) مدارك التنزيل وحقائق التأويل – النسفي (884–885) .

التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد، وعن النبيءﷺأنه تلا هذه الآية فقال: "العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه"، ودلت الآية عن فضل العلم على العقل.

نصيحة:

يبذل علماء الطبيعة والتكنولوجيا جهدهم بشتى الوسائل لمعرفة الأسرار التي تحيط بالعنكبوت، خاصة الخيوط التي تصنعها من جسدها الضعيف، وقد اقتبست للقارئ الكريم بعض ما وصل إليه هؤلاء العلماء:

خصائص خيوط العنكبوت:

من ناحية متانة الخيوط: تعتبر الخصلات الحريرية التي تكون النسيج أقوى من الفولاذ، ويتمدد الخيط الى خمسة أضعاف طوله قبل أن ينقطع. في الواقع، فإن هذا الخيط الصغير الذي يظهر أمام العين المجردة مصنوع بالطريقة نفسها التي يصنع بهاخيط الفحم، حيث يتكون من خيوط عدة متناهية في الصغر ملتفة حول بعضها، بالرغم من أن العنكبوت لا يَمُتُّ بصلة قرابة الى دودة القز التوتية الا ان حريرها غاية فى التشابه فكلتاهما تنتج فى غدة خاصة بإنتاج الحرير بروتين خاص يسمى الكيراتين**Keratin** وهو نفس البروتين الذى يتكون منه الشعر فى الانسان والقرون فى الحيوان والريش في الطيور.

- من أين يفرز هذا البروتين ؟ وكيف تصنع أنثى العنكبوت هذا النسيج القوي ؟؟؟

يظهر بروتين الحرير (نوع خاص يسمى الفاكيراتين) على شكل خيط عديد الطيات من الأحماض الأمينية المجدولة حلزونيا يفرزها العنكبوت من غدة موجودة فى بطنه ثم تنتقل عبر قنوات غدية الى الرأس حيث توجد آلة عجيبة هى بمثابة مدافع تسمى المدافع العنكبوتية لضخِّ البروتين وتكوين خيوط الحرير.

تتكون الآلة العجيبة من مضخة كابسة لتدفع البروتين السائل اللَّزج البلوري وصمام يسمح بخروج البروتين ببطء ويتحكم العنكبوت فى ذلك الصمام لتكون من خلال الصمام خيوط ذات سمك مختلف وأنواع مختلفة من الخيوط يسمى الجهاز العجيب المعجزة باسم **Pump – Valve Pressure System** فتخرج جزيئات البروتين فى صفوف متوازية.

هذا ما توصل إليه العلم في جانبه المادي، أما من الناحية السلوكية فيرى العلماء أن العناكب أمّة من الأمم ويوجد في العالم أكثر من ثلاثين ألف نوع من العناكب تتفاوت في الأحجام والأشكال ونمط المعيشة ويغلب عليها المعيشة الفردية والعدائية لبعضها بعضًا، ولا يوجد إلا أنواع قليلة جدًّا تعيش في جماعات. والإناث أكبر حجمًا من الذكور، والزوجان من العناكب يلتقيان في الغالب وقت التزاوج فقط ويقوم الذكر قبل الجِماع برقصات وطقوس معينة أمام الأنثى يقصد منها الحدِّ من الغريزة العدوانية لدى الأنثى، وعند انتهاء عملية التلقيح يغادر الذكر في الغالب عشّ الأنثى خوفًا من أن تقوم بقتله. وقتل الذكر بعد الانتهاء من عملية التلقيح يحدث بين كثير من أنواع العناكب وأكثرها شهرة عنكبوت الأرملة السوداء التي سميت بذلك لأن الأنثى تقتل ذكرها بعد انتهائه

من عملية التلقيح وذلك لوجود مادة بجسم الذكر تساعد علي اتمام عملية التخصيب للانثي، أما بعض أنواع العناكب فتترك الأنثى الذّكر ليعيش في العشّ بعد عملية التلقيح ليقوم الأبناء بقتله وأكله بعد أن يخرجوا من البيض. وفي أنواع أخرى تقوم الأنثى بتغذية صغارها حتى إذا اشتد عودهم قتلوا أمهم وأكلوها وذلك بسبب مادة توجد في الانثي ليكتمل نمو الصغار.

ومما سبق يتضح أن البناء الاجتماعي والعلاقات الأُسرية في بيت العنكبوت تتصف بأنها مبنية على مصالح مؤقتة حتى إذا انتهت هذه المصالح انقلب الأفراد أعداء وقام بعضهم بقتل بعض، فهذه أنثى العنكبوت تسمح للذكر بدخول عشها لوجود مصلحة التلقيح حتى إذا قضت إرْبَها منه انقلبت عليه وقامت بقتله وأكله، وأخرى تقدم زوجها طعاما لأولادها، وفي نوع آخر يأكل الصغار أمهم أول ما تقوى أعوادهم. وهذا العداء الشديد الذي يتجلى فقط بعد انقضاء المصالح، وهذه العلاقات الهشّة الضعيفة بين أفراد بيت العناكب يجعل هذا البيت بحقٍّ أَوْهَى بيوت المخلوقات المعروفة.

ما يقوله العلم الحديث في مختلف اكتشافاته، يؤكد أن للعناكب أسرارا كثيرة قد يكتشفها آخرون كلٌّ حسب تخصصه ولكن يبقى المثل المضروب بهذه الحشرة دليل على معجزة الخلق وحكمة الخالق وإبداعه في مخلوقاته، ويدلنا على أن اعتقاد الإنسان فيما اتخذه من شركاء لله أمر واهٍ ليس له قرار، فاعتقاد العنكبوت في قوة بيتها التي تسعى جهدها لبنائه والإهتمام لترقيعه لا يغني عنها شيئا حينما تهب الرياح العاصفة، فكذاك إذا هبت رياح الإيمان فلااستقرار للكفر وأهله.

أيها المؤمن، أنت قوي بإيمانك الصحيح الذي يتستمد قوته من الوَحْيَيْنِ: الكتاب والسنة، فهما الأساس لكل ما تعتقد وتعمل، فاجعل دعائم البناء النور الذي أنزل معهما، وابتعد عن الضلال والشبهات ما استطعت، مستعينا بالعلم في الأصلين حتى تحقق القوة المطلوبة منك، واسمع لقول رسول الله ﷺ: "المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتحْ عمل الشيطان" رواه مسلم.

من سورة الروم

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(28) ﴾سورة الروم

المعنى:

أي ضرب لكم أيّها القوم ربكم، مثلا واقعيا من أنفسكم هل يرضى أحدكم، أن يكون عبده ومملوكه شريكا له في ماله، الذي رزقه الله تعالى؟ فإذا لم يرض أحدكم لنفسه ذلك، فكيف ترضون لله شريكا له؟ وهو في الأصل مخلوق وعبد لله؟

﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ هذا من تتمة المثل، أي أنتم لا ترضون أن يشارككم عبيدكم ومماليككم، فيما بأيديكم من الأموال، وهم أمثالكم في البشرية ؟ فكيف تشركون به سبحانه مخلوقاته ؟ حيث تصنعونها بأيديكم ثم تعبدونها ؟ هل هذا منطق سليم، ورأي قويم ؟ فكيف رضيتم لله شريكا في خلقه وملكه ؟

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾أي مثل ذلك البيان الواضح، نبين الآيات لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال.

(مِّن) للإبتداء كأنه قال: أخذ مثلا وانتزعه من أقرب شيئ منكم هي أنفسكم، و(مِّن) الثانية في قوله:﴿ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾ للتبعيض، و(مِّن شُرَكَآءَ) من مزيدة لتأكيد الإستفهام الجاري مجرى النفي، ومعناه هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد أن يشارككم بعضهم في الأموال وغيرها ؟

(تَخَافُونَهُمْ) حال من ضمير الفاعل في سواء، أي: متساوون خائفاً بعضكم بعضاً مشاركته في المال والمعنى: تخافون معاشرة السادة عبيدكم فيها فلا تمضون فيها حكما دون إذنهم خوفا من لائمة تلحقكم من جهتهم.

فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء ؟

(كَذَٰلِكَ) موضع الكاف نصب أي: مثل هذا التفصيل (نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ) نبينها لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) يتدبرون في ضرب الأمثال.[1]

نصيحة:

عندما يحكم الإنسان عقله في كل ما يتصل بركائز الإيمان، يجد أن نور العقل الذي ميزه به خالقه يدُّله على أن الله واحد لا شريك له في ملكه، وأنه متصف بكل صفات الكمال والجلال والجمال، وأنه دعى الإنسان عن طريق الرسل والأنبياء إلى إفراده بالعبودية وحده دون إلحاق الشركاء من مخلوقاته مهما كانت، لكي يجعل عقولهم تتحرر من الأوهام والضلال وتتأمل بالنظر العقلي في ملكوته لتصل بالدليل العقلي إلى الإعترافبوحدانيته كما أخبر هو بذلك بواسطة رسله وأنبيائه الذين بعثهم إليهم.

فإذا كان الإنسان المالك للمال لا يرضى أن يشاركه أحد فيه، فكيف يرضى أن يجعل لله شريكا من البشر ؟

كن عبدا له وحده، وحرر العقل من قيد الوهم تكن متقد البصيرة، ترى الكون كله من صنع الله القادر، وأنك أيضا كونا مصغرا من صنعه تجلت فيك قدرته وآياته الناطقة، لتقول لك: إذا أبصرت في الأفق البعيد، أجرام السماء وانبساط الأرض دلتك أنه: لا شريك له في ملكه، وإذا تأملت خلقك وصلت

1) التنزيل وحقائق التأويل – النسفي – ص(885)

إلى معرفة فعل أسمائه الحسنى فيك، لينطق لسانك مترجما لما وقر في قلبك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم يدعوك لتتأمل آياته المقروءة في كتابه المسطور الذي تفضل به عليك وكلمك به بواسطة رسوله لتقرأ قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(18) ﴾سورة آل عمران، لتصل إلى النتيجة التي ترفع من قدرك والتي قال فيها سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعِ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(11) ﴾سورة المجادلة.

وفي الأخير عليك أن تقول أيضا: "وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأولوا العلم من خلقه، وأستودع الله هذه الشهادة إلى حين موتي ودخولي قبري وخروجي منه ولقاء ربي، إنه لا تَخِيبُ لديه الودائع".

يختم لك بالحسنى ويدخلك في زمرة أهلها.

من سورة فاطر

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(12) ﴾سورة فاطر

المعنى:

وما يستوي ماء البحر وماء النهرهذا ماء حلو شديد الحلاوة، يكسر وهج العطش، ويسهِّل انحداره في الحلق لعذوبته، وهذا ماء شديد الملوحة، يحرق حلق الشارب، لمرارته وشدة ملوحته، فكما لا يتساوى البحران: العذب، والملح، فكذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البر مع الفاجر، قال أبو السعود: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، والفرات الذي يكسر العطش، والسائغ الذي يسهل انحداره لعذوبته، والأجاج الذي يحرق بملوحته،

ومن كل واحد منهما تأكلون سمكا غضا طريا، مختلف الأنواع والطعوم والأشكالوتستخرجون منهما اللؤلؤ والمرجان، للزينة والتحلي، وترى أيها المخاطب السفن العظيمة، تمخر عباب البحر، مقبلة ومدبرة، تحمل على ظهرهاالأثقال والبضائع والرجال، وهي لا تغرق فيه، لأنها بتسخير الله جل وعلا، لتطلبوا بركوبكم هذه السفن العظيمة، فضل الله بأنواع التجارات، والسفر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة، ولكي تشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله، في تسخيره ذلك لكم.

لماذا جاء ذكر النعم التي ينتفع بها الإنسان من البحريين مع أن المثل ضرب للمؤمن والكافر ؟

يقول النسفي في كتابه مدارك التنزيل وحقائل التأويل، أن ذلك على سبيل الإستطراد في وصف البحرين وما يتعلق بهما من نعمته وعطائه كما يحتمل أن يكون غير طريقة الإستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين، ثم يفضل البحر

الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في المنافع من السمك واللؤلؤ وجري الفلك فيه، والكافر خلو من النفع فهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(74) ﴾سورة البقرة، ثم قال: وإن من الحجارة لما يتفجر منه الإنهار، ليخبرهم أن الحجارة ألين من قلوبهم.[1]

نصيحة:

المؤمن الصادق بنور إيمانه الذي وقر قلبه كمن يستسيغ شرب الماء العذب ينزل حلقه فيشعر بالإطمئنان والراحة، وكلما تذوق عذوبته ازداد انشراح صدرهواتساعه، أما الكافر فلا يزيده شرب الماء المالح الأجاج إلا عطشا، لأنه بعيد كل البعد عن الحقيقة.

إذا أردت أن تتمتع بعذوبة إيمانك فارجع إلى أركانه التي أسس عليها وتعهدها بالصيانة لكي لا تتزعزع ويحدث فيها تصدعات تؤدي إلى انهيارها، وذلك بالرجوع في كل مرة إلى مصادر بناءها، كتاب الله وسنة رسوله، وابتعد عن الملوحة المصاحبة لجحود المنعم ونكراه بسبب الغفلة وتسلط العدو المترصد بك في الطريق والذي توعدك بقوله: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ

1) مدارك التنزيل وحقائق التأويل-النسفي، ص(961/ 962)

أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(17) ﴾سورة الأعراف، أو بأيْمانه الذي قطعه لربك بقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82) ﴾سورة ص.

من سورة يس

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ(13)...﴾إلى قوله تعالى: ﴿...وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ(32)﴾سورة يس.

المعنى:

وأذكر يا محمد لقومك الذين كذبوك قصة أصحاب القرية (إنطاكية) التي هي في الغرابة كالمثل السائر، والقول العجيب حين جاءهم رسلنا الذين أرسلناهم لهدايتهم قال القرطبي: وهذه القرية هي(إنطاكية) في قول جميع المفسرين، أرسل الله إليهم ثلاثة رسل، وأمر ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين، أن يحل بهم ما حل بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل من الله، وقيل: هم رسل عيسى ((وما ذكره من أنهم رسل عيسى قول مرْجوح لأن قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾إنما يقال لمن ادعى أن الله أرسله كذا في التسهيل))، ﴿ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾أي حين بعثنا إليهم رسوليْن فبادروهما بالتكذيب، ﴿ فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ ﴾أي قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث، ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾ أي نحن رسل الله مرسلون لهدايتكم، ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾أي ليس لكم فضل علينا وما أنتم إلا بشر مثلنا، فكيف أوحى الله إليكم دوننا ؟، ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ ﴾أي لم ينزل الله شيئا من الوحي والرسالة، ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾أي ما أنتم إلا قوم تكذبون في دعوى الرسالة، ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ

لَمُرۡسَلُونَ ﴾أي أجابهم الرسل بقولهم: الله يعلم إننا رسله إليكم، ولو كنا كذبة لإنتقم الله منا أشد الإنتقام قالابن جزي: أكدوا الخبر هنا باللام [لمرسلون] لأنه جواب المنكرين، بخلاف الموضع الأول، فإنه إخبار مجرد، ﴿ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾أي وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله، بلاغا واضحا جليا لا غموض فيه، فإن آمنتم فلكم السعادة، وإن كذبتم فلكم الشقاوة قال أبو حيان: وفي هذا وعيد لهم، ووصف البلاغ بـ [ٱلۡمُبِينُ] لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال، كما روي في هذه القصة من المعجزات الدالة على صدق الرسل، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت، ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ ﴾ أي قال لهم أهل القرية: إنا تشاءمنا بكم وبدعوتكم القبيحة لنا إلى الإيمان، وترك عبادة الأوثان، قالالمفسرون: ووجه تشاؤمهم بالرسل أنهم دعوهم إلى دين غير ما يدينون به، فإستغربوه، وإستقبحوه، ونفرت عنه طبيعتهم المعوجة، فتشاءموا بمن دعا إليه، كأنهم قالوا: أعاذنا الله مما تدعوننا إليه، ثم توعدوا الرسل بقولهم﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ ﴾أي والله لئن لم تمتنعوا عن قولكم، ودعوتكم لنا إلى التوحيد، ورفض ديننا﴿ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾أي لنرجمنكم بالحجارة حتى تموتوا، ولنقتلنكم شر قتلة، ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ ﴾أي قالت الرسل لهم: ليس شؤمكم بسببنا، وإنما شؤمكم بسببكم، وبكفركم، وعصيانكم، وسوء أعمالكم﴿ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ ﴾؟ شرط جوابه محذوف لدلالة السياق عليه أي أئن ذكرناكم ووعظناكم ودعوناكم إلى توحيد الله، تشاءمتم بنا وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب ؟

﴿ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾أي ليس الأمر كما زعمتم، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في العصيان والتقريع، ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾أي وجاء من أبعد أطراف المدينة رجل يعدو، يسرع في يسرع في مشيه وهو ''حبيب النَّجار'' قال ابن كثير: إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، وهو - حبيب النجار - كان يعمل الحرير وهو الحباك، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه ((والقول بأن اسم الرجل''حبيب النجار'' مروي عن ابن عباس)) وقال القرطبي: كان(حبيب) مجذوما ومنزله عند أقصى أبواب المدينة، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة، يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره، فما استجابوا له، فلما أبصر الرسل ودعوه إلى الله قال: هل من آية ؟ قالوا: نعم نحن ندعو ربنا القادر، فيفرج عنك ما بك! فقال: إن هذا لعجيب، إني أدعو هذه الآلهة سبعين سنة لتفرج عني فلم تستطع، فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة ؟ قالوا: نعم ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئا ولا تضر، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به، فلما همَّ قومه بقتل الرسل، جاءهم مسرعا وقال ما قصه القرآن.

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾أي اتبعوا الرسل الكرام الداعين إلى توحيد الله، وإنما قال﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تأليفا لقلوبهم، وإستمالة لها لقبول النصيحة، ثم كرر القول تأكيدا وبيانا للسبب، فقال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾أي اتبعوا هؤلاء الرسل الصادقين المخلصين، الذين لا يسألونكم أجرة على الإيمان، وهم على هدى وبصيرة، فيما يدعونكم إليه من توحيد الله، ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي

﴿ فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾تلطف فى الإرشاد لهم، كأنه ينصح نفسه، ويختار لهم ما يختار لنفسه، وفيه نوعتقريع على ترك عبادة خالقهم، والمعنى: أي شيء يمنعني من أن أعبد خالقي الذي أبدع خلقي ؟ وإليه مرجعكم بعد الموت فيجازي كلا بعمله ؟

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إستفهام إنكاري أي كيف أتخذ من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع، ولا تغني عن عابدها شيئا ؟، ﴿ إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا ﴾أي هي في المهانة والحقارة، بحيث لو أراد الله أن ينزل بي شيئا من الضروالأذى، وشفعت لي لم تنفع شفاعتهم، ولم يقدروا على إنقاذي، فكيف وهي أحجار لا تسمع، ولا تنفع ولا تشفع ؟﴿ وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ أي ولا يقدرون على إنقاذي من عذاب الله.

﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾أي إني إن عبدت غير الله واتخذت الأصنام آلهة، لفي خسران ظاهر جلي.. وبعد النصح والتذكيرأعلن إسلامه، وأشهر إيمانه، فقال﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾أي إني آمنت بربكم الذي خلقكم، فاسمعوا قولي واعملوا بنصيحتي، قال المفسرون: لما قال لهم ذلك ونصحهم وأعلن إيمانه، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه أذاهم قال القرطبي: وثبوا عليه فوطئوه بأقدامهم حتى مات، وقيل: رموه بالحجارة حتى مات، ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾أي فلما مات قال الله له: ادخل الجنة مع الشهداء الأبرار، جزاء على صدق إيمانك وفوزك بالشهادة، قال ابن مسعود: إنهم وطئوه

بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره، وقال الله له﴿ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾فدخلها فهو يرزق فيها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها.

﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾أي فلما دخل الجنة وعاين ما أكرمه الله بها لإيمانه وصبره، تمنى أن يعلم قومه بحاله، ليعلموا حسن مآله، أي يا ليتهم يعلمون بالسبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي، وأكرمني بدخول جنات النعيم قال ابن عباس: نصح قومه في حياته، ونصحهم بعد مماته قال ابو السعود: وإنما تمنى علم قومه بحاله، ليحملهم ذلك على إكتساب الثواب والأجر، بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان، جريا على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء.

﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾هذا تحقير لهم وتصغير لشأنهم، أي ما احتاج الأمر، أن نرسل عليهم ملائكة من السماء لإهلاكهم، فهم أحقر وأصغر من ذلك، ﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾أي ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة صاح بهم جبريل، فإذا هم ميتون لا حراك بهم، قد أخمدت أنفاسهم حتى صاروا كالنار الخامدة، قال المفسرون: وفي الآية إستحقار لإهلاكهم، فإنهم أذل وأهون على الله من أن يرسل الملائكة لإهلاكهم، وقد روي أنه لما قتل "حبيب النجار" غضب الله تعالى له، فعجل لهم النقمة فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، فجعل طرق استئصالهم بالصيحة، ثم قال تعالى:

﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾أي يا أسفا على هؤلاء المكذبين لرسل الله، المنكرين لآياته، ويا حسرة عليهم، ما جاءهم رسول إلا كذبوه واستهزءوا به، وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان، قال البيضاوي: إنهم أحقاء بأن يتحسروا على أنفسهم أو يتحسر عليهم، فإن الأمر لفخامته وشدته، بلغ إلى حيث إن كل من يتأتى منه التلهف، إذا نظر إلى حال استهزائهم بالرسل تحسر عليهم، وقال: يا لها من حسرة وخيبة على هؤلاء المحرومين، حيث بدلوا الإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة، وفي الآية تعريض بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين. ولما مثل حال كفار مكة بحال أصحاب القرية، وبخ المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقهم، فقال سبحانه: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾أي ألم يتعظ هؤلاء المشركون، بمن أهلكهم الله قبلهم من المكذبين للرسل؟ ليعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم ؟﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ؟ قال أبو حيان: وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبيينا إلى أن الله تعالى لايترك المهلكين، بل بعد الهلاك جمعٌ وحسابٌ، وثوابٌ وعقابٌ.[1]

1) صفوة التفاسير – علي الصابوني – ج 3

البلاغة:

تضمنت الآيات الكريمة وجوها من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

1 – الإستفهام للتوبيخ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؟

2 – الحذف لدلالة السياق عليه﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ أي فلما أشهر إيمانه قتلوه فقيل له ادخل الجنة.

3 – جناس الإشتقاق بين﴿تَطَيَّرۡنَا.. و طَٰٓئِرُكُم﴾ وبين ﴿أَرۡسَلۡنَآ.. و مُّرۡسَلُونَ ﴾.

4 – مراعاة الفواصل وهو من خصائص القرآن لما فيه من روعة البيان، وحسن الوقع على السمع، كقوله ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾، ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ ، ﴿مُّهۡتَدُونَ ﴾.

تنبيه:

من محاسن التنزيل الكريم، وبلاغته الخارقة، هو الإيجاز في القصص والأنباء، والإشارة إلى روحها وسرها، لأن القصد منالقصص التذكير والإعتبار، ولهذا لم يذكر في القصة إسم البلدة، ولا إسم الشخص الذي دعاهم إلى الله، ولا إسم الرسل الكرام، لأنكل ذلك ليس هو الهدف من القصة، وقس على هذا سائر قصص القرآن.

نصيحة:

الدعوة إلى الله وتوحيده، مهمة كل نبيء ورسول، وفي سورة يس، التي لقبت بقلب القرآن، أوضح صورة لهذه المهمة الشريفة التي ختمها الله بآخر الرسل والأنبياء، محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وعلى أنبياء الله ورسله.

و المثل الذي جاء ذكره في السورة، يعطي الأدوات الناجعة للحوار لكي يحرك العقل البشري لقبول الهداية السماوية، ومن طبيعة هذا العقل أنه يطلب الأدلة والبراهين من أجل أن يُغير تصوره لمعبوده ولنفسه وللكون.

إن المؤمن بما جاء به النبئ والرسول، يتطلب منه شيئان: عمل قلبي أساسه التصديق الجازم بكل ما أخبر به النبيءأو الرسول، وعمل بالجوارح ليتحقق له الإمتثال للأمر واجتناب للنهي، ظاهرا وباطنا، ليطلق عليه اسم "المقتدي بالرسول".

فإذا أردت أن تكون منتسبا لرسولك بالإتباع، في الظاهر والباطن، فأعد قراءة المثل المضروب في هذه السورة، مرة بعد مرة، وتأمل الحوار الذي ميزه، لتعيش ببصيرتك المشهد الدعوي الذي قام به الثلاثة الذين دار حولهم المثل، وحقق بإيمانك اليقيني دخولك في دائرة المتبعين لسنة الرسول، المؤمنين بما أخبر عنه على لسان القرآن، واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(31) ﴾سورة آل عمران، تكن من الناجين غدا، ليقال لك مع المؤمنين: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا

لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26) ﴾سورة يــس، وينالك الإكرام من الكريم والغفران من الغفور الرحيم.

من سورة الزمر

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28) ضَرَبَ الله مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (29)﴾سورة الزمر

المعنى:

ولقد بينا ووضحنا للناس في هذا القرآن، من كل الأمثال النافعة، والأخبار الواضحة، ما يحتاجون إليه، لعلهم يتعظون ويعتبرون بتلك الأمثال والزَّواجر، حال كونه قرآنا عربيا لا إختلاف فيه بوجه من الوجوه، ولا تعارض ولا تناقض، لكي يتقوا الله ويجتنبوا محارمه..ثم ذكر تعالى مثلا لمن يشرك بالله، ولمن يوحده فقال سبحانه:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾أي ضرب الله لكم أيها الناس هذا المثل: رجل من العبيد المماليك، اشترك فيه ملاك سيئو الأخلاق، بينهم اختلاف وتنازع، يتجاذبونه في حوائجهم، هذا يأمره بأمر، وذاك يأمره بمخالفته، وهو متحير موزع القلب، لا يدري لمن يرضي ؟

﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾هذا من تتمة المثل، أي ورجلا آخر لا يملكه إلا شخص واحد، حسن الأخلاق، فهو عبد مملوك لسيد واحد، يخدمه بإخلاص، ويتفانى في خدمته، ولا يلقى من سيده إلا إحسانا هل يستوي هذا وهذا في حسن الحال، وراحة البال ؟ فكذلك لا يتساوى المؤمن الموحد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى. قال ابن عباس: هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص وقال الرازي: وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك، وتحسين التوحيد

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾لما كان المثل بينا واضحا في غاية الجلاء والوضوح، ختم الله به الآية، والمعنى: الحمد لله على إقامة الحجة عليهم، بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق، فهم لفرط جهلهم يشركون بالله،

نصيحة:

إذا أردت أن تكون عبداً له وحده، فوثِّق معبوديتك بإخلاص الخدمة فيما أمر ونهى، وحصِّن القلب بنور اليقين فيما وعدك من الأجر لأنه يجازيك بأضعاف ما عملت، ولاتترك سهام الأغيار الحاجبة عن مرضاته تتجاذبك كما يجذب المغناطيس الحديد، فتصيبك الحيرة والتخبط في ظلام إشراك الغير به، لأنه لا يقبل الشركاء، فقد جاء في الحديث القدسي: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ أَبِي عَمْرٍو، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: قَالَ: إِنَّ الله يَقُولُ: "أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلا فَأَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ". وإذا تأملته

فهمت منه أنه يقول: أنا غني عن أن يشاركني غيري، فمن عمل عملاً لي ولغيري لم أقبله منه، بل أتركه لذلك الغير.

عالج في كل مرة نياتك عند مباشرة الأعمال بترياق قوله: ﴿أَلَا لله الدِّينُ الْخَالِصُ(3) ﴾سورة الزمر، وزِّنْ ألفاظك بميزان: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(18) ﴾سورة ق، وحقق الإخلاص بالممارسة [1] والتقوى بالملابسة[2] واجتنب الكذب بالمكايسة [3]. وتذكر دائما قوله: ﴿إِنَّ الله لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ(3) ﴾سورة الزمر.

1) مارسَ يمارس، مِراسًا ومُمارَسةً، فهو مُمارِس، والمفعول مُمارَس: مارس الشَّخصُ الشَّئَ: عالجه وزاوله، قام بعمله.

2) مصدر: لابس، لابس فعل والمفعول مُلابَس (لابس الشخص: خالطه واتصل به، لابسه عمل كذا: زاوله)

3) المكايسة: كايسه: غالبه بالكياسة، كايسه في البيع: غالبه. (قاموس المعاني)

من سورة غافر

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ(58) ﴾سورة غافر

المعنى:

لا يتساوى المؤمن والكافر، ولا البرّ والفاجر، ولا تتعظون بهذه الأمثال إلا قليلا قال ابن كثير: والمراد أنه كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئا، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار، والكفرة الفجار، ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ؟

نصيحة:

الإيمان والكفر قديمان قدم الإنسان على وجه الأرض، وفي كل مرة يحاول أهل الكفر السيطرة على أهل الإيمان بما لديهم من سطوة وعلم وجاه، يريدون إطفاء النور الذي استقر في قلوب أهل الإيمان، ويدافع أهل الإيمان بما لديهم من قوة اليقين المؤيد بنور العقل والمنطق والوحي الذي أنزله الله على أنبيائه ورسله، والأيام دولٌ، والتاريخ شاهد عيان على هذا الصراع إلا أن تقوم الساعة، واقرأ قوله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ(3) ﴾سورة محمد، وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا

تَصِفُونَ(18) ﴾سورة الأنبياء، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81) ﴾سورة الإسراء أو قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ(49) ﴾سورة سبأ.

فإذا سطع نور الإيمان بشعاعه الدال على قيومية خالقك، ووصلك منه بصيص الأمل الدَّال على رغبتك في النجاة، فاتبع الحق المنّزل معه، وتبصر مواطن ومراتع أهل الباطل الدَّاعين إليه في أركان المعمورة لتجتبه وتفر منه كما يفر الصحيح المعافى من صاحب الآفة، فإن عدوى أهل الباطل تسري في القلوب كما تسري النار في الهشيم اليابس.

افتح بصيرتك لتأمل الكتاب الذي أنزله على عبده وافهم الخطاب، فقد خاطبك تفضلا منه بكلام مفهوم منزه عن الرسوم فقل بلسان حالك: يا فتاح يا عليم، يا من بيده الخير كلّه وإليه يرجع الأمر كلّه، افتح لي فتحا قريبا، آمين.

من سورة الزخرف

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57)وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ(59) ﴾سورة الزخرف.

المعنى:

ولما ذكر عيسى ابن مريم في القرآن، وضرب المثل بالآلهة التي عبدت من دون الله، إذا مشركو قريش يضجون وترتفع أصواتهم بالصياح قال المفسرون: لما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ (98) ﴾ سورة الأنبياء ، قال ابن الزبعرى: أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال: قد خصمتك ورب الكعبة ؟ أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود يعبدون عزيرا ؟ وبنو فلان يعبدون الملائكة فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم فسكت عليه الصلاة والسلام إنتظارا للوحي، فظنوا أنه ألزم الحجة، فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم ، فأنزل الله﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) ﴾ سورة الأنبياء ،قال القرطبي: ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها، لأنه تعالى قال﴿انكم وما تعبدون﴾ولم

يقل "ومنْ تعبدون" وإنها أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾؟ فإن كان عيسى في النار، فلتكن آلهتنا معه ما قالوا هذا القول لك إلا على وجه الجدل والمكابرة، لا لطلب الحق بل هم قوم شديدو الخصومة، واللجاج بالباطل قال في التسهيل: أي ما ضربوا لك هذا المثال، إلا على وجه الجدل، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره، سواء غلبه بحق أو بباطل، فإن ابن الزبعرى وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى: ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ولكنهم أرادوا المغالطة فوصفهم الله بأنهم قوم خصمون، وما عيسى إلا عبد كسائر العبيد، أنعمنا عليه بالنبوة، وشرفناه بالرسالة، وليس هو إلها ولا ابن إله، كما زعم النصارى، وجعلناه آية وعبرة لبنى إسرائيل، يستدلون بها على قدرة الله تعالى، حيث خلق من أم بلا أب قال الرازي: أي صيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر، حيث خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم. [1]

نصيحة:

الباطل حجاب يغطى العقل فيعطل قدراته التي خلقها الله فيه، فإذا واجه الحق الساطع لينيره بنوره، تجده يحتج بالحجج الواهية والمغالطات التي تزيده انغماسا في ظلام الباطل، خاصة إذا تعلق الأمر بقضية الإيمان والكفر بوجود الخالق المعبود بحق.

1) صفوة التفاسير – علي الصابوني (ج3)

و المجادلين بالباطل كثر وقد عرفهم التاريخ منذ العصور الغابرة، وأوضح الصور المسجلة في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(25) ﴾سورة الأنعام، وقوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ(6) ﴾سورة الأنفال، أو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ الله وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ(35) ﴾سورة غافر وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِالله إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(56) ﴾سورة غافر.

فإذا كان الجدال بالباطل يورث الغشاوة على القلب، فيصبح قاسيا، متكبرا، متجبرا لا يعرف الحق إليه سبيلا، فإياك والمجادلة إلا بالتي هي أحسن لتوضيح غامض وبيان حق أو تعليم جاهل وما سواها تدخلك في زمرة المبعدين عن طريق الهداية الذي وضحه رسول الهدى عليه الصلاة والسلام بقوله: "أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسَّن خُلُقَه"رواه أبو داود، في كتاب: الأدب، باب: في حسن الخلق، (رقم الحديث4800)

البيت الأول: في ربض الجنة، أي: أسفل الجنة، لمن ترك المراء وإن كان على حق.

البيت الثاني: في وسط الجنة، لمن ترك الكذب في كل موضع لا يجوز فيه، وإن كان مازحاً.وهذا الأمر مما يخالف فيه كثيرٌ من الناس حيث يسمحون لأنفسهم بالكذب، ويعللون ذلك بأنهم مازحون.

البيت الثالث: في أعلى الجنَّة، لمن حَسُنَ خُلُقَه، أي سعى في تحسين أخلاقه، وابتعد عن كل ما يدنسها ويفسدها، وترك جميع ما يخالف فطرة الله التي فطر الناس عليها.

المراء المقصود به في اللغة: استخراج غضب المجادل.

من قولهم: مَرَيْتُ الشَّاةَ، إذا استخرجت لبنها، وحقيقة المراء المنهي عنه: طعن الإنسان في كلام غيره؛ لإظهار خلله واضطرابه، لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مزيته عليه. وإن كان المماري على حق، فإنه لا يجوز له أن يسلك هذا السبيل؛ لأنه لا يقصد من ورائه إلا تحقير غيره والانتصار عليه.

أما الجدال فهو من الجدل، والجدل في اللغة: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وحقيقة الجدل في الاصطلاح الشرعي:

فتل الخصم ورده بالكلام عن قصده الباطل. وهو مأمور به على وجه الإنصاف وإظهار الحق، قال[1]:

---

1) كتاب الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، تأليف يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق د. محمود السيد الدغيم(صفحة 99)

اعلم -وفقنا الله وإياك –أن معرفةهذاالعلم لايستغني عنهاناظر، ولا يتمشى بدونها كلام مناظر؛ لأن به تتبين صحة الدليل من فساده، تحريراً وتقريراً، ولو ترك هذا العلم لأدى إلى الخبط وعدم الضبط.

وقد تكلم العلماء عن الجدل والمجادلة كثيراً، وألفوا فيها المؤلفات، وبينوا أهدافها ومقاصدها.

وقال النووي[1] – رحمه الله –: "اعلم أن الجدال قد يكون بحق، وقد يكون بباطل، قال الله تعالى: ﴿ وَلَاتُجَادِلُواأَهْلَالْكِتَابِإِلَّابِالَّتِيهِيَأَحْسَنُ﴾ (سورة العنكبوت: الآية 46)، وقال الله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾)سورة النحل: الآية 125)، وقال الله تعالى: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ الله إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (سورة غافر: الآية 40)".

قال: فإن كان الجدال للوقوف على الحق وتقريره كان محمودا، وإن كان في مدافعة الحق أو كان جدالا بغير علم كان مذموما، وعلى هذا التفصيل تنزل النصوص الواردة في إباحته وذمه والمجادلة والجدال، بمعنى واحد قال بعضهم: ما رأيت شيئا أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أشغل للقلب من الخصومة.

---

[1] هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي ، من أئمّة المذهب الشافعي ولد النووي رحمه الله في محرم عام 631هـ في قرية نوى ،توفي في 24 من رجب عام 676

وإنما نهى الشرع عن المراء والجدال لما فيه من إيذاء للمخاطب وتجهيل له، وطعن فيه، وفيه ثناء على النفس وتزكية لها بمزيد الفطنة والعلم، ثم هو مشوش للعيش؛ فإنك لا تماري سفيها إلا ويؤذيك، ولا تماري حليما إلا ويقليك ويحقد عليك؛ فقد قال ﷺ: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا).

فلا ينبغي أن يخدعك الشيطان ويقول لك: أظهر الحق ولا تداهن فيه، فإن الشيطان أبدا يستجر الحمقى إلى الشر في معرض الخير، فلا تكن ضُحكة للشيطان فيسخر منك، فإظهار الحق حسن مع من يقبله منك، وذلك بطريق النصيحة في الخفية لا بطريق المماراة.

وللنصيحة صفة وهيئة، ويحتاج فيها إلى تلطف وإلا صارت فضيحة، وكان فسادها أكثر من صلاحها، ومن خالط متفقهة العصر غلب على طبعه المراء والجدال، وعسر عليه الصمت، إذ ألقى إليه علماء السوء أن ذلك هو الفضل، والقدرة على المحاجة والمناقشة هو الذي يمتدح به؛ ففر منهم فرارك من الأسد، واعلم أن المراء سبب المقت عند الله وعند الخلق.

من سورة محمد

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ(3) ﴾سورة محمد

المعنى:

ذلك الإضلال لأعمال الكفار، أنهم سلكوا طريق الضلال، واختاروا الباطل على الحق وأن المؤمنين سلكوا طريق الهدى، وتمسكوا بالحق والإيمان، المنزل من عند الرحمن ومثل ذلك البيان الواضح، بين الله أمر كل من الفريقين – المؤمنين والكافرين – بأوضح بيان، وأجلى برهان، ليعتبر الناس ويتعظوا.

نصيحة:

تقوم أيات الكتاب العزيز الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(42) ﴾سورة فصلت، على تدعيم ركائز الإيمان وهدم الكفر ومحاربة مؤيديه بالحجة والبرهان ليعودوا إلى الحق فإن رفعوا سيوفهم لمحابته ووقفوا في طريق انتشاره جاء أمره بقوله في نفس السورة: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء الله لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(4) ﴾سورة محمد.

كن جنديا في صفوف أهل الحق، المستنيرين بنوره، المتبعين الهدى الذي أنزل معه، رافعا رايته بالعمل الصالح، مقتديا برسوله الذي جاهد في سبيله حق الجهاد حتى أتاه اليقين.

دعم حجتك بالعلم النظري والشرعي كما أمرك مولاك في محكم التنزيل بقوله: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً(83) ﴾سورة النساء، فالعقل يستبط الأحكام والروح تتبع الوحي من الرحمن والنفس إذا غاب عنها الأمر فمشورة أهل النهى تجد فيه المخرج من الأوهام، لتصل إلى العمل الموافق للكتاب والسنة التي اتفق عليها الشيخان، فلا تغفل عن الوقوف بين يدي خالقك للسؤال في يوم: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47) ﴾سورة الأنبياء.

من سورة الفتح

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ الله وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(29)﴾سورة الفتح

المعنى:

هذا الرسول المسمى محمدا ﷺ هو رسول الله حقا، لا كما يقول المشركون إنه ساحر أو شاعر، وأصحابه الأبرار الأخيار، غلاظ على الكفار متراحمون فيما بينهم، كقوله تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾قال أبو السعود: أي يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة، قال المفسرون: وذلك لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمس أبدانهم، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه في الدين صافحه وعانقه.

﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾أي تراهم أيها السامع راكعين ساجدين، من كثرة صلاتهم وعبادتهم، فهم رهبان بالليل أسود بالنهار، يطلبون بعبادتهم رحمة الله ورضوانه، قال ابن كثير: وصفهم بكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص لله عزّ وجلّ والاحتساب عنده بجزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة

على فضل الله ورضاه، علامتهم وسمتهم كائنة في جباههم، من كثرة السجود والصلاة قال القرطبي: لاحت في وجوههم علامات التهجد بالليل، وأمارات السهر، قال ابن جريج: هو الوقار والبهاء، وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع، قال منصور سألت مجاهدا عن قوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾أهو أثر يكون بين عيني الرجل ؟ قال: لا، ربما يكون بين عيني الرجل مثل ركبة العنز، وهو أقسى قلبا من الحجارة، ولكنه نور في وجوههم من الخشوع، ذلك وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الصلاة والسجود ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه وفروعه فقواه حتى صار غليظا، فقام الزرع واستقام على أصوله، قال البخاري: وهو مثل ضربه الله للنبىﷺ إذ خرج وحده ثم قواه اللهبأصحابه، كما قوى الحبة بما ينبت منها ويعجب هذا الزرع الزراع، بقوته وكثافته وحسن منظره، ليغتاظ بهم الكفار، قال الضحاك: هذا مثل في غاية البيان، فالزرع محمد ﷺ والشطء أصحابه، كانوا قليلا فكثروا، وضعفاء فقووا، وقال القرطبي: وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ، يعني أنهم يكونون قليلا، ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي ﷺحين بدأ بالدعوة ضعيفا، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال، حتى يغلظ نباته، وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان، وعدهم تعالى في الآخرة بالمغفرة التامة، والأجر العظيم، والرزق الكريم في جنات النعيم، اللهم ارزقنا محبتهم يا رب العالمين. [1]

---

1) صفوة التفاسير – علي الصابوني، ج(3)

نصيحة:

جمعك بأخيك المسلم، دين الإسلام، حين النطق بالشهادتين باللسان، والعمل بتوجيهاته بالجوارح والجنان، فتدخل وإياه تحت قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.

أرسله بالهدى فعرفك الطريق، وأيده بالحق فكان له الظهور، وألهم ذويه فأسموه محمدا، كثير الحمد لربه مشاهدا، ونال الإضافة لاسمه الجامع، فبلَّغ رسالته للعالمين، وحضي الأصحاب بالمعية فرفعوا راية الجهاد في أنفسهم، رهبان بالليل فرسان بالنهار وحققوا الشدة على من خالفهم وتبادلواالرحمة على من وَالاَهُمْ، ضرب بهم المثل في الكتابين، فظهروا بعلامة تحقيق العبودية في الوجوه وبالكثرة القائمة على السوق، فنالوا إعجاب من رآهم وقد وعدهم مغفرة منه وأجرا عظيما، فحقق الصورة بالإتباع وحقق العبودية بالإستماع في كل مرة كلمته وكلمك وإياك والإبتداع، تدخل زمرة الأصحاب كما فعلوا، تفز بالجنة كما دخلوا، فإن سبيلهم الهدى الذي جاء به الرسول وبسلوكهم له كان لهم الوصول، فالصلاة عليه ركيزتها صلته في هديه والعمل بشرعه، ومحبته تحقيق الإتباع والخروج من دائرة الإدعاء، فقد نطق لسان الوحي المنزل عليه فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهّ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ (31)﴾ سورة آل عمران، فتنال بذلك التوافق بين آخر الفتح ﴿وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(29) ﴾سورة الفتح و﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾يفاتحك بالأسرار ويلهمك الأنس به في خلوتك ويوفقك للعمل

وتشملك رحمته ويعلمك من لدنه علما، فترى الحقائق بعين البصيرة وتقرأ كتابه المسطور بقلب حاضر لكي يعلمك القراءة في كتابه المنشور فيفهمك الكلام في الكتابين ثم يرجعك إليك لترى ءاياته فيك ويلهمك الفهم عنه بمحض النور.

حقق في حياتك الإنتماء إليه واجعل شعارك الإسلام قبل كل شيء، تعيش به، وله، ومن أجله، ليكتب لك الفوز بالمعية الأخرى مع محمدﷺوصحبه الكرام، فيضمك تحت لواءه ويعرفك كما يعرف صاحب الخيل خيله الأصيلة بالغرِّ المحجلين، واستمد عزتك من عزة الإسلام الذي تكرم الله عليك فجعلك من أهله، واجتهد أن تتعلم الإمتثال لأوامره واجتناب نواهيه، تكن مسلما حقا، وضع يدك في يد أخيك المسلم للتعاون على البر حيث كان، والإبتعاد عن الإثم والعدوان حيث كان، تكن مؤمنا حقا، فقد ختم سورة الفتح بهذا المثال ليدلَّك على أن مفتاح الجنة بيد رسوله الكريم محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والتسليم، ولا يفتحها إلا بإذنه ولا تُفْتَح لغيره ولا يدخلها أولا أحد سواه، لتفهم أنت أن دخولك في معيته تنال بها الدرجات العالية لأنك أصبحت دائرا في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.

من سورة الحديد

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(20) ﴾سورة الحديد

المعنى:

اعلموا يا معشر السامعين، أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعب، يتعب الناس فيها أنفسهم، كإتعاب الصبيان أنفسهم باللعب وشغل للإنسان يشغله عن الآخرة وطاعة الله وزينة يتزين بها الجهلاء، كالملابس الفاخرة، والمراكب البهية، والمنازل الرفيعة، ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب، والمال والولد، كما قال القائل: أرى أهل القصور إذا أُميتوا بنوا فوق المقابر بالصخور أَبَوْا إلا مباهاة وفخرا على الفقراء حتى في القبور، ومباهاة بكثرة الأموال والأولاد، قال ابن عباس: يجمع المال من سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه في مساخط الله، فهو ظلمات بعضها فوق بعض، مثلها كمثل مطر غزير أصاب أرضا، فأعجب الزراع نباته الناشىء عنه ثم ييبس بعد خضرته ونضرته، فتراه مصفر اللون بعد أن كان زاهيا ناضرا ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه، فيصبح هشيما تذروه الرياح، كذلك حال الدنيا، قال القرطبي: والمراد بالكفار هنا الزراع، لأنهم يغطون البذر، ومعنى الآية أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه، لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيما

كأن لم يكن، وإذا أعجب الزراع فهو في غاية الحسن، والجزاء في الآخرة، إما عذاب شديد للفجار، وإما مغفرة من الله ورضوان للأبرار. وليست الحياة الدنيا في حقارتها وسرعة انقضائها، إلا متاع زائل، ينخدع بها الغافل، ويغتر بها الجاهل، قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغرور، إن ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة..ولما حقر الدنيا وصغر أمرها، وعظم الآخرة وفخم شأنها، حث على المسارعة إلى نيل مرضاة الله، التي هي سبب للسعادة الأبدية في دار الخلود والجزاء.[1]

نصيحة:

أوجدك في دنياك من أجل تحقيق العبودية له وحده، وضمن لك الأرزاق من فوق رأسك ومن تحت قدمك وأنعم عليك من النعم دون سؤالك لتصل إلى مرضاته بالسمع والطاعة لأمره واجتناب نهيه، وبعث لك الرسل ليبينوا لك الطريق فيأخوذون بيدك إليه.

اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(56) ﴾سورة الذاريات أو قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22) ﴾سورة الذاريات، أو قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24) ﴾سورة عبس، والقرآن الكريم حافل بالآيات الدالة على نعم الله على الإنسان، وقد أمره بتحقيق

1) صفوة التفاسير - علي الصابوني (ج3)

الشكر ليزيده من فضله بقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ(7) ﴾سورة إبراهيم.

إعلم أن حياتك في هذه الدار فرصة لا تعوض، وظرفك فيها عمرك المحدود بيوم ولادتك وبيوم وفاتك، والأعمال فيها تحصى وتنسخ في السجلات لتعرض عليك غدا، وجعل لك عتيد ورقيب ليسجلا أقوالك، وترى بأم عينيك متاعها يحيط بك من كل جانب، المال والأولاد والنساء والخيل المسومة، والمراكب العصرية المبرقة والملونة، والسرابيل التي تقيك الحرَّ والبأس، والدُّور والقصور ذات الأبراج العالية والغرف الواسعة المفروشة بأنواع البسط المزخرفة، والحيطان المصقولة بأنواع البلاط المزخرف والمستورد، والأسواق العامرة بالسلع ذات الأذواق التي يسيل على إثرها اللعاب، وروائح الأطعمة التي تنفتح على إثرها البطون وتملأ على موائدها الصحون، وإذا حدثتك عن متاع الدنيا فإن كثرته وتنوعه يأخذ بالألباب.

إعلم أنه ضرب لك مثل متاعها بصورة واضحة ماثلة في عقلك الذي أمرك أن تستعمله فيما خلق له بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ(43) ﴾سورة العنكبوت، فإن كنت عالما فاقرأ هذا المثل مرة ثانية وثالثة...لكي يلهمك الله معرفة حقيقة الدنيا التي أوجدك فيها، وتيقن أن علمك بها سيقودك إلى العمل بما يرضي الله تعالى ورسوله، لتدخل في ضمن المغفرة الإلاهية التي تشمل العارفين بالله وتحضى بالرضوان الذي يسعى لنيله كل مؤمن بالله ورسوله واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ(8) ﴾سورة البينة.

من سورة الحشر

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ(16) ﴾سورة الحشر

المعنى: مثل المنافقين، في إغراء اليهود على القتال، كمثل الشيطان الذي أغرى الإنسان بالكفر، ثم تخلى عنه وخذله، فلما كفر الإنسان تبرأ منه الشيطان وقال: إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ أي أخاف عذاب الله وانتقامه إن كفرت به، قال في التسهيل: هذا مثل، مثل الله به للمنافقين - الذين أَغْوَوْا يهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك - بالشيطان الذي يغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه، والمراد بالشيطان والإنسان هنا الجنس، وقول الشيطان﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ كذب منه ورياء لأنه لو خاف الله، لامتثل أمره وما عصاه !!((قال ابن كثير: أي مثل هؤلاء اليهود فى اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، كمثل الشيطان إذ سَوَّلَ للإنسان الكفر ثم تبرأ منه وتنصل وقال إني أخاف الله رب العالمين)).

نصيحة:

تاريخ اليهود حافل بالخديعة والمكر والغرور، لأنهم ببساطة أنزل الله فهم قرآنا يتلى إلى يوم القيامة قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ

إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(75) ﴾سورة آل عمران، فلا يتركون أحدا من غيرهم يعيش في سلام، لأنهم ببساطة أنزل الله فيهم قرآنا يتلى إلى يوم القيامة قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(64) ﴾سورة المائدة، فكتاب ربنا يحذرنا منهم أشد التحذير ويحدد علاقتنا بهم بمنهج رباني باق ما بقيت السماوات والأرض بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(2) ﴾سورة الحشر، فإذا كنا أصحاب بصيرة ترى بنور الله فلنتبع قول ربنا تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(51) ﴾سورة المائدة، وما نراه في حياة المسلمين اليوم يعكس انحرافنا عن نور ربنا مع أننا نتلوا القرآن في مساجدنا جماعات وأفرادا، وأيدينا في أيديهم بحجة التقدم الحضاري الذي يصدروه لنا ونشتريه بثرواتنا وهم: ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ(10) ﴾سورة التوبة.

في هذا المثل صورة واضحة تبين العلاقة بين الإنسان وربه على أساس الإيمان اليقيني أن ما عنده خير من الدنيا وما فيها من زخارف، وما أنزل الشيطان مع أبيك آدم إلا ليغره بهذا المتاع ويصده عن المتاع الدائم، فإذا كنت فعلا صاحب يقين فلا تترك للشيطان عليك سبيلا واجعله العدو رقم واحد في قائمة أعداءك مستحضرا هذه الآيات المباركات ليكتب لك النجاة:

1- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(168) ﴾سورة البقرة

2- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(208) ﴾سورة البقرة

3- ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا(101) ﴾سورة النساء

4- ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(142) ﴾سورة الأنعام

5- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا(50) ﴾سورة الكهف

6- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(6) ﴾سورة فاطر

7- ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(60) ﴾سورة يــس

8- ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(62) ﴾سورة الزخرف

تعرف على عدوِّك في دنياك تأمن في أخراك وتدخل في زمرة ياء النسبة التي ألحقها بعباده بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً(65) ﴾سورة الإسراء.

من سورة الجمعة

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله وَالله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(5) ﴾سورة الجمعة

المعنى: مثل اليهود الذين أعطوا التوراة، وكلفوا العمل بما فيها، ثم لم يعملوا بها، ولم ينتفعوا بهديها ونورها، مثلهم كمثل الحمار، الذي يحمل الكتب النافعة الضخمة، ولا يناله منها إلا التعب والعناء، قال القرطبي: شبههم تعالى -والتوراة فى أيديهم وهم لا يعملون بها -بالحمار يحمل كُتُبًا، وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة، فهو يتعب في حملها، ولا ينتفع بما فيها. ذمَّ تعالى اليهود بأنهم قرءوا التوراة، وعلموا بما فيها، ولكنهم لم ينتفعوا بها، مما ينجيهم من شقاوة

الدارين، وشبههم بالحمار الذي يحمل أسفار العلم والحكمة، ولا ينتفع بها، ووجه التشبيه حرمان الانتفاع، مع الكدِّ والتعب، بئس هذا المثل الذي ضربناه لليهود، مثلا للقوم الذين كذبوا بآيات الله، الدالة على نبوة محمد ﷺ((أقول: هذه الآية الكريمة فيها تعريض بنا معشر المسلمين إن لم نطبق أحكام القرآن ونعمل بمقتضاه، وهي على حدِّ قول المثل: إياك أعني واسمعي يا جارة)).والله لا يوفق للخير، ولا يرشد للإيمان، من كان ظالما فاسقا، قال عطاء: هم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم للأنبياء..

اللغة:

- [أَسْفَارًا] جمع سفر وهو الكتاب الكبير.

قال الشاعر

زوامل للأسفار لا علـم عنـدهم بجيـــدها إلا كعلـــم الأبـــاعر
لعمرك ما يـدري البعـير إذا غـدا بأوســاقه أو راح مــا في الغرائــر

نصيحة:

أنزل الله كتبه على عباده منذ أن خلق آدم عليه السلام إلى أن ختم الرسالات بخاتم النبيئين سيدنا محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والتسليم، فأنزل عليه القرآن آخر الكتب والوحي الخالد ليكون دستورا لكل البشر يهديهم إلى خالقهم ليرضى عنهم في الحياة الدنيا والأخرى.

فإذا كنت ساعيا لنيل رضاه فما عليك إلا فهم الرسالة التي بعثها إليك بلسان عربي مبين، واجتهد أن ترقى بفهمك إلى مستوى اللغة التي كلمك بها باكتساب المفاتيح التي تساعدك على فتح خزائن الوحي، فتسعد في هذه الدار لأنك فهمت عنه ما يريد منك من خلال الكلام.

تذكر دائما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(69) ﴾سورة العنكبوت، ابدأ أول خطوة في طريق فهم الخطاب وسيحيطك بالرعاية والهداية لأنه أكد لك بتأكيدين (إنَّ) و(لام التوكيد) لتحصل أنت على المعية ويفتح صدرك فيفتح قفل قلبك للتدبر وعقلك للتفكر فتصبح عاملا بما جاءك منه تراه بعين البصيرة قبل العين الجارحة، ويخرجك من دائرة البهيمية العجماء المتمثلة في الحمار الذي ضرب به المثل وأنكر صوته في موقعين من كتابه، سورة لقمان بقوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ(19) ﴾سورة لقمان، وفي سورة الجمعة بقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، فافهم رحمك الله ونور بصيرتك.

من سورة التحريم

﴿ضَرَبَ الله مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ الله شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ الله مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11) ﴾سورة التحريم

المعنى:

أي مثل تعالى للكفار، في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين، بحال امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا في عصمة نبيين عظيمين هما "نوح" و"لوط" عليهما الصلاة والسلام، وإنما وصفهما بالعبودية تشريفا وتكريما بإضافتهما إليه تعالى، فخانت كل واحدة زوجها بالكفر وعدم الإيمان، فلم يدفعا عن امرأتيهما – مع نبوتهما – شيئا من عذاب الله((الخيانة هنا يراد بها الخيانة في الدِّين لا في العرض، وقد أخطأ البعض حيث نسب لهما فاحشة الزنى، وهذا لايجوز، لأن الله تعالى أكرم أنبياءه من أن تتعاطى واحدة منهن الفجور، بل هن شريفات مصونات لحرمة الأنبياء، وقد قال ابن عباس: "ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما وكانتا مشركتين"، فتدبره فإنه دقيق)).﴿ وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾أي وتقول لهما خزنة النار يوم القيامة: أدخلا نار جهنم مع

سائر الداخلين من الكفرة المجرمين، قال القرطبي: ضرب تعالى هذا المثل، تنبيها على أنه لا يغني في الآخرة أحد عن قريب ولا نسيب، إذا فرق بينهما الدين، كما لم يدفع نوح ولوط - مع كرامتهما على الله تعالى - عن زوجتيهما لما عصتا وكفرتا شيئا من عذاب الله.

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾وهذا مثل آخر للمؤمن، في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر، إذا كان هو مؤمنا، قال أبو السعود: أي جعل حالها مثلا لحال المؤمنين، في أن وصلة الكفر لا تضرهم، حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله "فرعون" وهي في أعلى غرف الجنة قال المفسرون: واسمها "آسية بنت مزاحم" آمنت بموسى عليه السلام، فبلغ ذلك فرعون فأمربقتلها، فنجاها الله من شره، فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به، وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما، وهما رسولا رب العالمين، ﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي حين دعت ربها قائلة: يا رب اجعل لي قصرا مشيدا بجوار رحمتك، في جنة النعيم قال بعض العلماء: ما أحسن هذا الكلام ؟ فقد اختارت الجار قبل الدار، حيث قالت﴿ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾فهي تطمع في جوار الله، قبل طمعها في القصور، وفي الآية دليل على إيمانها، وتصديقها بالبعث، ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾أي وأنقذني من كفر فرعون وطغيانه، ﴿ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾أي وأنقذني من الأقباط، أتباع فرعون الطاغين، قال الحسن: لما دعت بالنجاة، نجاها الله تعالى أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة، تأكل وتشرب وتتنعم.

الصورة البلاغية:

المقابلة بين مصير أهل الإيمان ومصير أهل الطغيان﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وقابله بقوله ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

نصيحة:

القلب محل الإيمان بالله كما أنه محل للكفر به، فأهل الإيمان سعداء بدخول نور الإيمان إلى قلوبهم فظهرت الأعمال صالحة استحقوا الجزاء الحسن فكانوا في جوار خالقهم في الدار الحسنى ولهم الزيادة للنظر إلى وجهه الكريم في: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89) ﴾سورة الشعراء، فلا أنساب ولا أحباب يشفعون، وقد أبصرت بعين البصيرة مثل امرأة نوح وامرأة لوط، بابتعادهما عن نور الهداية، لم ينفعهما كونهما تحت نبيين كريمين، فافهم وحقق إيمانك اليقيني لتعمل بعمل أهل اليقين، وكن بالمثل الثاني الذي ضربه لك بآسية بنت مزاحم التي حقق الله لها ما طلبته فكان لها جارا لأن قلبها سكن فيه نوره مع أنها كانت تحت أعتى عدو لله "فرعون" فافهم رحمك الله كما رحمها واسكنك الجنة كما أسكنها.

المثال من حديثه ﷺ

بعد هذ العرض للمثل في كتاب الله عزّ وجلّ، أظنني أني وضحت الصورة للقارئ الكريم عساه ترسخ في بصيرته الأمثال التي ضربها لنا خالقنا لنرتقي إلى مصاف العلماء، ونزداد رقيا في سلم الهداية عندما تنعكس هذه الصور على مرآة أعمالنا لكي نصبح فعلا من الذين مدحهم الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ(٩٠) ﴾سورة الأنعام، وتكلمة للموضوع طلب مني أن أذيله بمثلين من حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام فاخترت بعد البحث اثنين أظن أنهما يكملان الموضوع لما فيهما من الموعضة والذكرى لكل مسلم يبحث عن مبتغاه في الكتاب والسنة.

الحديث الأول

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺأنه قال: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُّ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ الأَرْضَ، فَكَانَتْ مِنْهُ طَائِفَةٌ قَبِلَتْ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُّ بِهَا نَاسًا فَشَرِبُوا فَرَعَوْا، وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَسقَوْا، وَأَصَابَتْ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِّ وَنَفَعَهُ اللهُّ بِمَا

بَعَثَنِي بِهِ وَنَفَعَ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ). رَوَاهُ أَحْمَدُ كَذَلِكَ، وَهُوَ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ نَصْرٍ، وَرَوَاهُ كَذَلِكَ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَرَّادٍ، وَأَبِي كُرَيْبٍ، وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، كُلُّهُمْ عَنْ أَبِي أُسَامَةَ

الشرح:

الراوي هو الصحابي الجليل، الإمام الكبير، عبد الله بن قيس بن سليم، أبو موسى الأشعري، الفقيه، المقرئ، أقرأ أهل البصرة، وفقههم في الدين، دعا له النبي ﷺ فقال: (اللهم أغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً) (رواه البخاري باب غزاة أوطاس 8/ 41 ومسلم باب فضائل أبي موسى برقم 2498) فقد أرسله النبي ﷺ إلى ناحية في اليمن، يدعو الناس ويعلمهم ويفقههم في الدين، هاجر إلى الحبشة، وقدم منها ليالي خيبر، وشارك فيما بعدها من الغزوات، قال الذهبي: وقد كان أبو موسى صواماً قواماً ربانياً زاهداً عابداً، ممن جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر، لم تغيره الإمارة ولا اغتر بالدنيا. توفي رضي الله عنه سنة اثنتين وأربعين، وقيل سنة ثلاث وأربعين. (سير أعلام النبلاء 2/ 380، وتهذيب التهذيب 5/ 249).

اللغة:

- الهدى هو الدلالة الموصلة إلى المطلوب.
- نَقِيَّة بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء، والمراد بها سهلة طيبة .

- الكلأ بالهمزة بلا مد، وهو النبات الرطب واليابس، أما العشب فهو الرطب دون اليابس.
- أجادب جمع جدب، وهي الأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء .
- فنفع الله بها: أي بالأرض الأجادب التي أمسكت الماء .
- وزرعوا: وفي رواية (ورعوا) من الرعي، قال النووي: وكلاهما صحيح .
- قِيعان: بكسر القاف، جمع قاع، وهي: الأرض المستوية الملساء التي لا تنبت .

البلاغة:

- ومثل من لم يرفع بذلك رأساً: كناية عمن جاءه العلم فلم يحفظه ولم يعمل به ولم ينقله إلى غيره.

من أحكام الحديث:

1ـ العلم الشرعي: وهو العلم المستنبط من الكتاب والسنة وما يتعلق بهما رأس العلوم وأفضلها، حَرِيٌّ بأن يتسابق إليه الجادُّون والحريصون استجابة لترغيب الرسول ﷺ في هذا الحديث، فجعل أهل الفقه في الدين كالغيث الذي نفع الأرض فاستفاد منه الناس، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (9) ﴾، سورة الزمر. ويقول سبحانه مادحاً أهل العلم الذين هم أهل خشية الله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28) ﴾سورة فاطر، ويقول ﷺ: (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر

الكواكب). (رواه أبو داود في السنن، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم 2/ 341، رقم الحديث (3641)، والترمذي، كتاب العلم باب ما جاء في فضل الفقه 5/ 46، رقم الحديث (2681).

2ـ لا غنى لأي مسلم عن العلم، إذ به يعرف دينه، وكيف يؤدي عبادة ربه، وكيف تقوم علاقته مع الناس، فحاجة الناس للعلم أشد من حاجتهم إلى المطر، وما ارتفع فرد أو أفراد إلا بالعلم، وقدتضافرت النصوص الشرعية على ذلك .

3ـ الرسولﷺ معلم البشرية، وإمام المعلمين يعطي درساً في أسلوب التعليم، ذلكم هو ضرب الأمثال لتقريب الفكرة لدى السامعين، فالرسول ﷺ هنا يشبه الناس بالأرض، ويشبه العلم بالغيث، والناس يعرفون عمل الغيث بالأرض ويعيشونه. فعلى المعلم والمربي أن يسلك الأساليب المقربة للعلم لدى أبنائه وطلابه .

4ـ قدرات الناس مختلفة، وتقبلهم متفاوت، ولذلك كانوا أقساماً في تقبلهم للعلم، وعلى المسلم أن يحرص أن يكون من القسم الأعلى الذي يستقبل العلم ويعمل به وينشره بين الناس .

5ـ جعل الرسول ﷺ الناس في تقبلهم للعلم ثلاث درجات:

أـ الدرجة الأولى: من تقبل ما جاء به الرسول ﷺ وعلمه وعمل بما فيه، وعلم الناس، فهؤلاء هم أفضل الناس لأنهم انتفعوا في أنفسهم ونفعوا غيرهم .

ب ـ الدرجة الثانية: من تقبل ما جاء به الرسول ﷺ وحمله إلى الناس فانتفعوا به، لكنه لم يتفقه فيه، وقل اجتهاده في العمل به .

ج ـ الدرجة الثالثة: من لم يستفد مما جاء به الرسول ﷺ ولم يعمل به أو ينقله إلى الناس، وهؤلاء مذمومون على لسان الرسول ﷺ.

الحديث الثاني

روى الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله في كتاب الشركة من صحيحه: (باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه) من حديث النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِي الله عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا).

تخريج الحديث:

الحديث أخرجه البخاري في كتاب الشركة (2493)، وأخرجه أيضاً في كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات (2686)، بلفظ: (مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها...) وأخرجه الترمذي في الفتن (2173) وأحمد

(4/ 268)، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (10/ 91)، (0/ 288)، وفي شعب الإيمان (7576) (6/ 91 - 92)

وأخرجه ابن حبان[(297) (1/ 532)-إحسان)]، وفي [(298) (1/ 533- 534)] بلفظ: (المداهن في حدود الله والراكب حدود الله والآمر بـها والناهي عنها كمثل قوم استهموا...)، وفي [(301) (1/ 537)] بلفظ: (مثل المداهن في حدود الله والآمر بـها والناهي عنها كمثل قوم استهموا سفينة.

شرح إجمالي للحديث:

هذا مثل عظيم يُشبه فيه الرسولﷺحال الناس وموقفهم مما يكون في المجتمع من منكرات بحال قوم ركبوا سفينة فاقتسموا أماكنهم فيها بطريق القرعة، فكان من نصيب بعضهم الجزء الأعلى من السفينة، وكان من نصيب الآخرين الجزء الأسفل منها، وكان لابد لأهل السفل من الماء، فكانوا يصعدون لأعلى السفينة ليستقوا الماء، ولما كان ممرهم على أهل العلو فقد تأذوا بـهم؛ إذ ربما أصابـهم شيء من رشاش الماء أو أُقلقوا وقت راحتهم أو غير ذلك، فلما رأى أهل السفل تأذي أهل العلو بـهم عزموا على أن ينقبوا في نصيبهم نقباً يحصلون منه على الماء دون الحاجة إلى إيذاء من فوقهم، ولم يدر هؤلاء أن هذا الخرق الصغير سيؤدي إن تُرك إلى هلاك الجميع ويكون معنى (أصغر خرق) هو - كما قال مصطفى صادق الرافعي - أوسع قبر. [وحي القلم: 3/ 8]. ويبين الرسول الكريمﷺأن الأمر لا يخلو حينئذ من إحدى نتيجتين: إما أن يقوم أهل العلو

بواجبهم في منع هذه الكارثة فينجو الجميع؛ وإما أن يتركوهم وشأنهم بدعوى أن هذا نصيبهم يفعلون فيه ما يشاءون، وحينئذ تكون النتيجة الحتمية هي هلاك الجميع.

والحديث الشريف يبين أنه هكذا تكون حال الناس في المجتمع فإنه لا يخلو مجتمع من بعض صور المنكر والفساد التي يقدم عليها ضعاف الإيمان، وقد يلتمس بعضهم لنفسه مبرراً في ما يفعل كأن يقول هذه حرية شخصية، وأنا حر أصنع في ملكي ما أشاء، فإن قام أهل الرشد بواجبهم في إنكار هذه المنكرات والأخذ على أيدي الظالمين صلح المجتمع ونجا الجميع من غضب الله عزّ وجلّ، وأما إن تقاعسوا عن هذا الواجب وغلبت كلمة المداهنين فإن العقوبة الإلهية تعم الجميع، وتلك سنة إلهية لا تتغير، قال الحافظ: "وهكذا إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه، وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها" [فتح الباري: 5 / 296]، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (25) ﴾سورة الأنفال ، وقوله ﷺ: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب."

الدراسة اللغوية

- أولا: معاني المفردات:

– المَثَل والمِثْل والمثيل: واحد ومعناه الشبيه.

- حدود الله: المراد بالحدود هنا ما نـهى الله عنه، وأصل الحد في اللغة المنع والفصل بين الشيئين، ومنه حد الدار وهو ما يمنع الغير من الدخول فيها، والحداد الحاجب والبواب.

- المدهن: من الإدهان وهو المصانعة والمحاباة في غير حق، ومنه قـوله عزّ وجلّ: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ (9)﴾ سورة القلم

- استهموا: اقترعوا، والسهم في الأصل واحد السهام التي يضرب بـها في الميسر وهي القداح، ثم أطلق على ما يأخذه الفائز في الميسر، ثم كثر حتى سمي كل نصيب سهماً .

- خرقنا في نصيبنا خرقاً: الخرق هو الشق أو الثقب .

- ينقر: من النقر وهو الحفر سواء كان في الخشب أوالحجر أو نحوهما، ونقر الطائر الشيء ثقبه بالمنقار .

- أخذوا على أيديهم: أي منعوهم.

• ثانيا: مسائل نحوية:

من المسائل النحوية التي يمكن الوقوف عندها في هذا الحديث ما يلي:

1- قوله: (مَثَلُ) مرفوع بالابتداء، وأما الخبر فإننا إذا اعتبرنا الكاف في قوله: (كمثل) اسماً فإنـها تكون هي الخبر، وأما إذا اعتبرناها حرفاً فإن الخبر يكون محذوفاً تقديره مستقر أو موجود، وذلك مثل ما قيل في إعراب قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا

يُبۡصِرُونَ(17) ﴾ سورة البقرة ، فقد ذكر القرطبي في تفسيره (1/ 211) أنه يمكن أن يكون الخبر في الكاف فهي اسم كما هي في قول الأعشى:

أتنتهون ولـن ينهـى ذوي شـططٍ كالطعن يذهب فيه الزيت والفُتُلُ

أراد مثل الطعن، قال: "ويجوز أن يكون الخبر محذوفا تقديره: مثَلُهم مستقر كمَثَل، فالكاف على هذا حرف".

وقال العكبري في إعراب القرآن: (1/ 20): "والكاف يجوز أن يكون حرف جر فيتعلق بمحذوف، ويجوز أن يكون اسماً بمعنى مثل فلا يتعلق بشيء".

2- قوله: (لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً): أسلوب شرط جوابه محذوف تقديره: لكان خيراً أو نحو ذلك، أو يكون قولهم (لم نؤذ) هو الجواب، وتكون الواو زائدة.

وذلك كما قيل في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ(15) ﴾ سورة يوسف ، فقد ذكروا أن جواب لما محذوف تقديره (فعلوا به ما فعلوا)، وقيل إن الجواب (أوحينا) والواو مقحمة، ومثله قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ(103) ﴾سورة الصافات ، أي (ناديناه). (فتح القدير للشوكاني: 3/ 10.)

3 - قوله: (فإن يتركوهم): إن شرطية جوابـها هلكوا، وضمير الرفع (الواو) عائد على أهل العلو في السفينة، وضمير النصب (هم) عائد على أهل السفل.

4- قوله: (وما أرادوا)،الواو بمعنى مع، و(ما) مصدرية أو موصولة، فعلى الأول يكون المعنى: (وإرادتـهم)، وعلى الثاني يكون المعنى: (والذي أرادوا) .

5- قوله: (هلكوا جميعاً)،الواو في (هلكوا) تعود على الفريقين معاً، و(جميعاً) حال.

6- قوله (نجوا ونجوا جميعاً)،الواو في (نجوا) الأولى عائد على الآخذين، وفي نجوا (الثانية) عائد على المأخوذين، كذا قال الكرماني(1)، وذكر العيني أن الذي في الثانية عائد على الفريقين معاً.

7- قوله في كتاب الشهادات: (فكان الذي في أسفلها يمرون)،وكذا ما جاء في بعض الروايات في كتاب الشركة (فكان الذي في أسفلها إذا استقوا مروا)، فيه إشكال من حيث أن قوله: (الذي) مفرد، فكيف قال في شأنه يمرون أو مروا، ولم يقل يمر أو مر؟ ويمكن أن يجاب عن ذلك بأحد الأجوبة التالية:

أ – أن يقال إن (الذي) يقع عند بعض العرب للواحد والجمع؛ أي تكون بمعنى: من وما فيعود الضمير إليه تارة بلفظ المفرد وتارة بلفظ الجمع، قال القرطبي: قال ابن الشجري هبة الله بن علي: ومن العرب من يأتي بالجمع بلفظ واحد، كما قال الشاعر:

وإن الذي حانت بفلـج دمـاؤهم   هم القوم كل القـوم يـا أم خالـد

وقيل في قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ (33)﴾ سورة الزمر ، إنه بـهذه اللغة، وكذلك قوله: ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ

ٱلَّذِى﴾ قيل: المعنى كمثل الذين استوقدوا، ولذلك قال: ذهب الله بنورهم، فحمل أول الكلام على الواحد وآخره على الجمع. (تفسير القرطبي: 1/ 211).

ب - أن يقال إن الذي هنا مخففة من الذين، وقد قال الزمخشري ما حاصله أن الذي لكونه اسم موصول يحتاج إليه في وصف كل معرفة بجملة، ويتكاثر وقوعه في كلامهم فإنه يقبل التخفيف، فكذا يقبل جمعه (الذين) التخفيف، كما أن الياء والنون في (الذين)، ليستا كالياء والنون في جمع المذكر السالم في قوة الدلالة على الجمع، لذا ساغ حذفها ولم يمتنع كما هو الحال في جمع المذكر السالم وأشباهه. (الكشاف: 1/ 196)

ج - غير أنه يمكن توجيه قوله (الذي) في الحديث الذي بين أيدينا توجيهاً آخر، وهو أن تكون (الذي) هنا صفة لموصوف مفرد اللفظ، ولكنه جمعٌ في المعنى وذلك كلفظ (الجمع) فكأنه قال: (فكان الجمع الذي في أسفلها يمرون) فلما اعتبر لفظه وصف بالذي، ولما اعتبر معناه أعيد عليه ضمير الجماعة، أفاد ذلك صاحب المصابيح، وقال فيما نقله عنه القسطلاني في شرحه على صحيح البخاري: "وهو أولى من أن يجعل الذي مخففاً من الذين بحذف النون".

نظرات بلاغية

لا يخفى أن الرسول الكريمﷺهو أفصح البشر لساناً وأبلغهم بياناً، فقد كان كلامه كما قال الجاحظ: "هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه

وجل عن الصنعة ونُزه عن التكلف... فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الحوشي ورغب عن الهجين السوقي... لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه".

ووصف الرافعي رحمه الله كلامهﷺمن الناحية البيانية بأنه: "حسن المعرِض، بيِّن الجملة، واضح التفصيل، ظاهر الحدود، جيد الرصف، متمكن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراهاً، ولا ترى اضطراباً، ولا خطلاً، ولا استعانة من عجز، ولا توسعاً من ضيق، ولا ضعفاً في وجه من الوجوه".

وقد حق علينا أن ننظر في هذا الحديث الشريف من الناحية البلاغية، لنحاول أن نكشف بحول الله عن بعض ما تضمنه من جوانب البلاغة الراقية التي تعجز عن أن تدانيها فصاحة الفصحاء وبلاغة البلغاء.

وسوف ننهج في هذا المضمار نـهج علماء البلاغة في تقسيمهم إياها إلى ثلاثة فروع: المعاني والبديع والبيان، حيث نذكر ما في الحديث من هذه العلوم الثلاثة .

أولاً: المعاني:

الأسلوب في هذا الحديث أسلوب خبري يخبر الرسولﷺفيه بحال الناس، ويشبههم براكبي سفينة، غير أن هذا الأسلوب الخبري قد خرج على خلاف مقتضى الظاهر، فليس المراد من الخبر هنا مجرد إفادة السامع بالخبر، ولا إفادته أن المتكلم عالم بالخبر، وإنما الغرض منه الحث وتحريك الهمة نحو القيام بواجب الأمر والنهي.

ثانياً: البديع:

في الحديث من المحسنات المعنوية: الطباق في جمعه بين (القائم) و(الواقع)، وبين: (أعلاها) و(أسفلها)، وبين: (هلكوا) و(نجوا).

والطباق هنا من نوع طباق الإيجاب، وهو الذي يُعرِّفه البلاغيون بأنه ما جُمع فيه بين الشيء وضده؛ فالقائم ضد الواقع، والأعلى ضد الأسفل، والهلكة ضد النجاة.

وليس من شك في أن هذا الطباق قد أبرز المعنى وزاده وضوحاً، فإن الضد -كما يقولون - يُظهر حسنَه الضد، ويزيد من حسنه أنه أتى في كلامهﷺعفواً لا يحس المرء فيه شيئاً من التكلف المذموم، فإنَّ تكلف المحسنات البديعية وتعمدها مما يفقد الكلام سلاسته ويحبس المعاني والأفكار .

ثالثاً: البيان:

اشتمل الحديث من الصور البيانية على ما يلي:

1 – الاستعارة في قوله: (القائم على حدود الله)،وهي استعارة مكنية، شبهت فيها المعاصي بوهدة من الأرض محدودة بحدود وحولها رجال يحرسونـها، ويمنعون الناس من الوقوع فيها، ثم حذف المشبه به وأتى بلازمة من لوازمه وهي الحدود. ونفس الشيء يقال في قوله: (الواقع فيها).

وهذا تعبير يوحي بمدى الهوة السحيقة التي يهوي إليها أصحاب المنكر المخالفين لأمر الله، ومدى خطورة الواجب الملقى على عاتق المصلحين في الأمة فهم حراس الفضيلة القائمون على حدود بئر الرذيلة، مانعين الناس من التساقط فيها .

2 – الكناية في قوله صلى الله علسه وسلم (أخذوا على أيديهم)،فإن الأخذ على اليد كناية عن استعمال الشدة والقوة، والتعبير بعلى يفيد الاستعلاء والفوقية، كما ذكر الحافظ ابن حجر في حديث: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، حيث قال: "قوله (تأخذ فوق يديه) كنى به عن كفه عن الظلم بالفعل إن لم يكف بالقول، وعبر بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء والقوة".

3 – التشبيه التمثيلي في قوله: (مثل القائم على حدود الله...) إلخ، وهو تشبيه معقول بمحسوس؛ شبهت فيه الهيئة الحاصلة من قيام المسلمين بواجبهم في تغيير المنكر بالهيئة الحاصلة من قيام أهل السفينة بمنع من يريد خرقها من الإقدام على ما يريد، كما شبهت الهيئة الحاصلة من التقاعس عن تغيير المنكر بحال أهل السفينة إن تركوا من يريد خرقها يفعل ما يشاء.ووجه الشبه هنا صورة منتزعة من متعدد؛ وهي منتزعة في الحالة الأولى من هيئة النجاة

المترتبة على قيام قوم بما يجب عليهم، وفي الحالة الثانية من هيئة الهلاك الناجم عن تقصيرهم في ما يجب عليهم؛ فكما أن أهل السفينة سينجون إن أخذوا على يد من يريد خرقها، فإن النجاة ستكون مصير الجميع في مجتمع يأخذ أهله على يد العابثين، وكما أن الغرق سيكون مصير أهل السفينة إن تركوا مريد الخرق يفعل ما يريد فإن مجتمع المداهنين الساكتين عن أهل المنكر سيؤول إلى هلاك محتم.ومن أجل هذا قلنا إن هذا التشبيه هو من نوع تشبيه التمثيل، وذلك جرياً على اصطلاح جمهور البلاغيين الذين يرون أن التشبيه التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدد.

بهذا يكون قد تم البحث في المثل من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف بتاريخ 5 من صفر عام 1436 هـ الموافق لـ 28 من نوفمبر 2014 م والله من وراء القصد.

المراجع

1 – القرآن الكريم

2 – البرهان في علوم القرآن: الزركشي

3 – صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني (ثلاثة أجزاء)

4 – مدارك التنزيل وحقائق التأويل: النسفي

5 – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية

6 –رسائل الجنيد: في الفرق بين الصدق والإخلاص

7 – الأمثال في الكتاب والسنة: الحكيم الترميذي

8 – مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني

9 – لسان العرب: لابن منظور

10 – التعريفات: للجرجاني

11 – التوقيف على مهمات التعاريف: للمناوي

12 – تهذيب الأخلاق: المنسوب للجاحظ

13- شرح أركان الإيمان لأمة الإسلام من منظومة عقيدة العوام – تنسيق وترتيب الدكتور: عمر عبد الله كامل

14- تهذيب شرح السنوسية أم البراهين: سعيد عبد اللطيف فودة

15- مواقع على الشبكة العنكبوتية:

1) قصائدوأبيات في الزهد والوعظ والرقائق، ملتقى أهل الحديث، موقع إلكتروني: **http: //www.ahlalhdeeth.com**

2) موقع صيد الفوائد**http: //saaid.net/Doat/alrajhi/13.htm**

الفهرس